الباب الرابع

المنهج العلمي المعاصر

تعلمت أوربة من العرب طريقة جديدة وضعت العقل فوق السلطة. ونادت بوجوب البحث المستقل والتجربة. وكان لهذين الأساسين الفضل الكبير في القضاء على العصور الوسطى والإيذان بعصر النهضة.

برنارد لويس

الفصل الأول

انتقال المنهج الإسلامي إلى أوروبة

انقسمت الإمبراطورية الرومانية في سنة ٣٣٠ للميلاد إلى إمبراطوريتين:

الأولى: شرقية تتبعها أمم في آسيا وأفريقيا عاصمتها بيزنطة.

والثانية: غربية تتبعها شعوب أوروبة عاصمتها (روما).

وبقيت الإمبراطورية الشرقية وعاصمتها بيزنطة حتى فتحها المسلمون (العثمانيون) سنة ١٤٥٣ للميلاد.

أما الإمبراطورية الغربية فسقطت في أيدي قبائل جرمانية زحفت عليها سنة ٤٧٦ للميلاد فمزقتها وألقت بها في بحار الظلمات، حتى إذا أعاد لها "شارلمان"وجودها سنة ٧٩٩ للميلاد لمتلبث إلا قليلا حتى ردتها إلى غياهبها غارات القبائل في القرنين العاشر والحادي عشر فتقاسمتها إمارات نشرت فيها نظام الإقطاع واستعباد الأمراء لرعاياهم.

وفتح الله على المسلمين في أوائل القرن السابع الميلادي أكثر أصقاع الإمبراطورية الشرقية فحصروها في القسطنطينية وإقليم آسيا الصغرى وأقاليم في أوروبة ورفعوا ألوية الإسلام في الشام سنة ١٣ للهجرة (سنة ٦٣٢) للميلاد وحاصر معاوية القسطنطينية سنة ٥٠ وحاصرها مرة أخرى سليمان بن عبد الملك حتى أمر عمر بن عبد العزيز (٩٩- ١٠١) بفك الحصار.

أما في المشرق فاستولى المسلمون في أوائل القرن السابع الميلادي على أقاليم الإمبراطورية الفارسية وآسيا سنة ١٣ للهجرة، فدانت بالإسلام. وفتحت مصر سنة ١٨ للهجرة وتحطم الأسطول الإغريقي سنة ٣٨ في معركة ذات الصواري وسقطت قبرص في أيدي المسلمين وبلغت جيوشهم طنجة سنة ٦٢ على المحيط الأطلسي.

وفي سنة ٩٢ للهجرة أو ٧١١ للميلاد فتح الله على المسلمين غرب أوروبة في الأندلس (إسبانيا والبرتغال) كما تواتر سقوط جزر البحر الأبيض في أيديهم وأعظمها (صقلية) ففتحوها

ابتداء من سنة ٢١٣ ودانت البلدان المفتوحة بالإسلام وعمرها العرب وبدأت علوم العرب منذئذ تنتقل إلى سائر الأصقاع في أوروبة عن طريق الأندلس وجزيرة صقلية.

والمسلمون أمة واحدة إن في المشرق وإن في المغرب والرحلة في طلب العلم أو تعليمه ديدنها، والحج السنوي جامعتها الإيمانية والعلمية التي لا تتوقف وفيها المنافع الكبرى للناس. فلا يكاد رأي فقهي أو عمل علمي أو كتاب ذو شأن يأخذ مكانه في المشرق حتى ينتقل إلى المغرب كهيئة ظهور مذهب مالك في المدينة وكتابته – من الفور – في المدينة ثم في مصر وانتقاله منها مباشرة إلى المغرب فالأندلس.

وطلب العلم وتعليمه فريضة إسلامية قامت بأدائها الدولة في الأندلس وفي أفريقية ومصر قيامها بها بالمشرق. وبهذا وجدت الكتب العلمية أو الفقهية في المشرق والمغرب في وقت واحد. وتشاكلت في محتوياتها مكتبات قرطبة عاصمة الأندلس ومكتبات بغداد ودمشق والقاهرة والقيروان وتشابهت حلقات التدريس. يقول ول ديورانت: "ربما ملك الصاحب بن عباد (٣٨٥) (الوزير في بغداد) في القرن العاشر الميلادي ما يقدر حينئذ بما في مكتبات أوربة مجتمعة. وكنت تجد في ألف مسجد منتشرة من قرطبة حتى سمرقند (في روسيا السوفيتية الآن) علماء لا يحصيهم العد كانت تدوي أركانها بفصاحتهم".

وكانت عقول أهل قرطبة – على ما يقول ستانلي لينبول – كقصورها في الحسن والروعة. فإن علماءها وأساتذتها جعلوا منها مراكز للثقافة الأوربية، فكان الطلبة يفدون عليها من جميع أنحاء أوروبة ليتلقوا العلم على أساتذتها الأعلام. وكانت تدرس في قرطبة كل فروع العلوم البحتة،ونال الطب بكشوف علماء الأندلس وجراحيها من النمو والازدهار نصيبا أعظم مما ناله قبلهم من أيام (جالينوس). وكان أبو الطيب خلف جراحا ذائع الصيت في القرن الحادي عشر. وبعض عملياته الجراحية تطابق اليوم العمليات الحديثة. وكان الفيلسوف ابن رشد يؤلف الحلقة الأولى في السلسلة التي وصلت فلسفة قدامى اليونان بفلسفة أوروبة في العصور الوسطى.

أما الأدب العربي فإن أوروبا لم تر في عهد من عهودها حفاوة بالأدب وأهله كما رأت في الأندلس حيث كان الناس من كل طبقة ينظمون الشعر. ونظن أن هذا الشعر أوحى للشعراء المغنين في أسبانيا أناشيدهم وأغانيهم وهو الذي حاكاه شعراء بروفانس (في فرنسا).

وربما أجزأ عن الاستقصاء في هذا الشأن، ما عبر به بريفو عن مصادر الحضارة الأوربية كافة والعلمية خاصة، بما فيها الكنيسة وأحبارها حيث قال:

"كانت أوربة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر تتجه إلى العرب باحثة عما استجد عندهم من صناعات وعلوم وفنون، خاصة بالملاحة، منقبة عن كشوفهم في علوم الرياضة والفلك والطب والكيمياء وتبحث عندهم عن آثار أرسطو وابن سينا وابن رشد. وكان علماؤها من أمثال... و... و... يلتمسون عند العرب حصاد عالم جديد من الفكر والعلم ووجد (ريجيو مونتانوس) عندهم المعارف التي مكنت هنري الملاح (١٤٦٠م) وفاسكو داجاما (مكتشف طريق الهند بالدوران حول أفريقيا) [٤٧] وكرستوف كولمب (مكتشف أمريكا) من ارتباط المحيطات والوصول إلى أطراف العالم[٤٨] وعثر دي باث في قرطبة على النسخة الوحيدة من كتاب إقليدس الذي ظل يدرس حتى سنة ١٥٣٣ وطاف كل من... و... و... بأرجاء إسبانيا ليتزودوا بالعلوم الرياضية بل إن الكنيسة نفسها لجأت إلى العرب لتجد عندهم ما يعينها على إقامة صرح الفكر المدرسي. وبحث كل من توماس الإكويني والبرت الكبير عن فلسفة العقيدة الفلسفية عند القارابي.

وفي الوقت الذي أنشأ فيه الشعراء الطروبادور (مشتقة من الطرب).. صرح روجير بيكون في أكسفورد، بأن وجود الفكر الأوربي والعلم الأوربي كان مستحيلا لولا وجود المعارف العربية.. لقد دعيت أوروبة فجأة إلى الحياة بعد أن ظلت في ظلمات الجهل خمسة قرون... وهي مدينة لها بكل تقدمها".

---

(٤٧) صعد العلامة ابن ماجد (٩٣٦هـ) إلى سفينة فاكسو داجاما وهي عند الساحل الأفريقي شمال مدغشقر في ١٥ مارس سنة ١٤٩٨ فأرشدها حتى الهند. وهو من مواليد إمارة رأس الخيمة الحالية وله أربعون كتابا أكثرها في علوم البحار. فهذا الكشف الأوربي في أوائل عصر النهضة شركة بين عالم إسلامي وبحار برتغالي من أوروبة.

(٤٨) في كتاب "نزهة المشتاق لاختراق الآفاق" للإدريسي خبر الملاحين المسلمين الذين اتجهوا بسفنهم غربا في المحيط الأطلسي وكشفوا عن جزر فيها أقوام شقر وسود ورجعوا يروون ما شاهدوه وتكبدوه. ومن دراسات العرب في إسبانيا والبرتغال وخرائطهم، صمم مكتشفو العالم الجديد رحلاتهم التي انتهت بالكشف عن الأمريكتين.

وربما كفت في كتابنا هذا فقرات في بيان الطريق إلى ذلك.

obeikandl.com

- **الأندلس:**

الأندلس اسم معرب لكلمة (أندالوشيا) وبها تسمى قبائل فندالس Vandales الذين اجتاحوا فرنسا وإسبانيا ثم هبطوا إلى أفريقية في زحف القبائل الجرمانية في القرن الخامس للميلاد. وكما جمل العرب اسم الإقليم إذ عربوه أبدعت العبقرية الإسلامية في تزيينه بالحضارة التي حملتها القبائل العربية، إذ جاءت بعد الفتح تتفيأ ظلاله وتنشر من موقعه البديع في أوربة أضواء الإسلام وعقيدته وفنونه وعلومه.

وتابعت جيوش العرب زحفها لفتح فرنسا واخترقت جبال البرانس وفتحت لانجدوك وكركسون حتى أوقفتها جيوش الفرنسيين والألمان مجتمعين في موقعة "بلاط الشهداء" بين تور وبواتييه الآن. فشرق العرب حتى بلغوا وادي الرون حيث أقاموا المستعمرات العربية في جنوب فرنسا (إقليم بروفانس وستنشأ فيه جامعة مونبلييه لنقل العلوم العربية).

وثبتت القبائل العربية أركان الفتح الجديد، وحافظت على أصالتها، وتناتجت منها ومن أهل البلاد السابقين ذرية عربية يزدان بها تاريخ العلم في العصر الوسيط، وبقيت ملامحها العربية في وجوه الأسبان حتى الآن إذ لم ينسحب منها المسلمون إلا بعد قرون ثمانية من إبداعات الحضارة الإسلامية.

ولما قامت الدولة العباسية بعد ثلاثين عاما ونيف بالعراق، استأصلت ذرية بني أمية – إلا من نجا – وكان من الناجين فتى عبر البحر إلى الأندلس سنة ١٣٨ هو عبد الرحمن بن معاوية (ابن الخليفة هشام بن عبد الملك) فنصبه أهلها أميرا عليهم في قرطبة، وحاربه أمير الأندلس لأبي جعفر المنصور الخليفة العباسي (١٥٥) وهزمه عبد الرحمن (الداخل). وقامت في الأندلس ابتداء من سنة ١٤١ دولة أموية قوية تزاحم دولة بني العباس في بغداد.

ويتراءى تحنان الدولة الجديدة إلى منابتها الأولى في قول عبد الرحمن الداخل وهو يودع الحجيج إلى بيت الله الحرام:

أيهـــا الراكـــب المـــيمم أرضـــي أقـــر مـــن بعضـــي الســـلام لبعضـــي

إن جســـمي كمـــا علمـــت بـــأرض وفـــؤادي كمـــا علمـــت بـــأرض

وانحازت الدولة الأموية بالأندلس من أول قيامها إلى مذهب مالك وإلى مدرسة المحدثين في المدينة في مواجهة انحياز أهل العراق إلى مذهب أبي حنيفة ببغداد. وكان حكام الأندلس يرفعون شعار (مذهب دار الهجرة يكفينا).

واستحكم الخلاف بعد أبي جعفر المنصور بين ابنه المهدي (١٦٩) وبين عبد الرحمن الداخل فأنفذ المهدي إلى الأندلس جيشا بقيادة عامله على أفريقية عبد الرحمن بن حبيب، فانهزم وأحرقت سفائنه، وانقطعت آمال ابن العباس في دولة الأندلس سنة ١٦٩٢ وإن لم تنقطع معارك الكلام.

روى الطبري عن.... هشام الكلبي (٢٠٤) وكان نسابة "بينما أنا في منزلي.. إذ أتاني رسول المهدي فسرت إليه.. وبين يديه كتاب.. فدنوت فجلست بين يديه فقال: خذ هذا الكتاب فاقرأه ولا يمنعك ما فيه مما تستفظعه أن تقرأه.. فنظرت في الكتاب فألقيته من يدي ولعنت كاتبه.. فقال المهدي: اقرأه بحقي عليك.. فإذا كتاب قد ثلبه فيه كاتبه ثلبا عجيبا لم يبق له فيه شيئا. فقلت يا أمير المؤمنين وفي من هذا الملعون الكذاب؟ فقال هذا صاحب الأندلس. قلت: فالثلب والله فيه يا أمير المؤمنين وفي آبائه وأمهاته. ثم اندرأت أذكر مثالبهم فسر بذلك وقال: أقسمت عليك لما أمللت مثالبهم كلها على كاتب ودعا بكاتب من كتاب السر.. وأمرني فسرت إليه فصدر الكتاب من المهدي جوابا وأمللت عليه مثالبهم فأكثرت... ثم لم أبرح حتى أمر بالكتاب فختم وجعل في خريطة ودفع إلى صاحب البريد وأمر بتعجيله إلى الأندلس".

ولعل تبادل الهدايا بين الرشيد (ابن الهدي) وبين شارلمان إمبراطور أوربة، كان تناوشا من بعيد مع الدولة الأموية في الأندلس التي لم تحفل به، فالأندلس كانت أقوى وأبقى من إمبراطورية شارلمان.

لقد كانت مدينة نيس في جنوب فرنسا من ثغور الإمبراطورية فلم تتردد سفائن العرب في أفريقية عن الغارة عليها وتخريبها، دون أن تحفل بشارلمان كما لم تحفل بالإمبراطورية الرومانية الشرقية ففتحت صقلية سنة ٢١٣ ودمرت أسطولها وهزمت الجيوش الرومانية الشرقية.

وانشغل المأمون (ابن الرشيد) بحروبه بحروبه في الداخل أو مع الإمبراطورية الرومانية في بيزنطة ودمر أخوه المعتصم جيوشها في عمورية وكانت نجوم الأندلس في ارتفاع حين كان المعتصم (٢٢٨) آخر الخلفاء العظماء في دولة بني العباس.

*　　*　　*

انعدمت المنافسة بين دولتي الإسلام في المشرق والمغرب وانفردت الأندلس بنشر العلم والتمكين للإسلام به في أوربة، فكانت تستقدم الكتب من الشرق، وتتعالى مآذنها في المساجد، وتتعدد وتتنوع حلق العلم حول أساطينها، في المساجد أو في المدارس، للمسلمين والمسيحيين واليهود من أهل الأندلس أو أهل أوروبة منذ بنى عبد الرحمن الداخل مسجد قرطبة، وزاد عمارته ابنه هشام، إذ حكم بعده من سنة ١٧١هـ = ٧٨٧م فلما ولي بعد هشام ابنه الحكم (من ١٨٠ إلى ٢٠٦) ازداد اهتماما بالعلم والعلماء فقربهم إليه وسار سيرته ابنه عبد الرحمن الأوسط (من ٢٠٦ إلى ٢٣٨) واتجهت إليه أوروبة ببعوثها الرسمية فكان يرد عليها ببعوث يرأس بعضها العلماء ومنهم يحيى الغزال فيلسوف عصره. كما كان يفد إلى حلقات الدرس في الجامع الأحبار من كل مكان يتزاملون مع الدارسين في الأندلس من عرب ويهود وأسبان.

وسفارة الفلاسفة أعظم الدلالات على طبيعة الحضارة في الدولة التي تصدر عنها وأكبرها أثرا في نفوس دول في حضيض الجهل، سنقرأ وصف أحد ملوكها لحضارتها أيامئذ.

وكانت العلاقة العلمية تزداد وثاقة أو منافسة بين المشرق والمغرب العربي كلما تقدم العلم. ففي حكم الأمير محمد بن عبد الرحمن، حاول بقي بن مخلد بعد أن رجع من بغداد حيث تتلمذ للإمام أحمد بن حنبل (٢٤١)، أن يدرس للناس مصنفا غير موطأ مالك، فثار عليه العلماء في المسجد وشكوه إلى الأمير فنهى الأمير الخصوم عن التعرض له بعد إذ تصفح الكتاب وأمر بضمه إلى خزائنه. ولكن أثر الدروس يعلنه الإمام الشاطبي حيث يقول: "لقى بقي الأمرين من هذا الصنف من العلماء، حيث صيروه مهجور الإفتاء مهضوم الجانب. وكان هؤلاء المقلدة قد صمموا على مذهب مالك بحيث أنكروا ما عداه".

وابن حزم يقول في تفسير بقي بن مخلد للقرآن: "أقطع أنه لم يؤلف في الإسلام مثل تفسيره لا تفسير ابن جرير الطبري ولا غيره".

* * *

وفي سنة ٣٠٠ أي في القرن العاشر الميلادي ولي الحكم عبد الرحمن الناصر، فبقى فيه خمسين عاما بلغت فيها الأندلس أوجها وتلقب بلقب الخلافة. وأصبحت قرطبة كما يقول صاحب حقائق الأخبار عن دول البحار: "مركز العلوم والآداب وكثر فيها العلماء من كل فن وكانت قرطبة تناظر بغداد. فيها سبعون دارا للكتب. وستمائة مجلد. وتسعمائة حمام للجمهور" تحكي محتويات قصرها حضارة عصرها: ١٣٥٠٠ بين خدم وحشم منهم ٦٣٠٠ جارية يصرف إليهم في اليوم ١٣٠٠٠ رطل لحم سوى الدجاج والحجل (الطيور).. ولا عجب في ذلك فهذه الدولة العظيمة كانت تدار من داخل هذا القصر الذي استوردت له مواد البناء من كل الأقطار، بما فيها روما والقسطنطينية. وفيه الزهراوي الطبيب، وفي مجلس الخلافة كبار أهل الرأي يتصدرهم صاحب العقد الفريد (ابن عبد ربه)" وعنه يقول المؤرخ دوزي "كان أجدر به أن يكون قرينا لملوك العصر الحديث لا خليفة من خلفاء العصور الوسطى".

وفات دوزي أن الخليفة الناصر في ذلك ليس بدعا بين ملوك المسلمين، وهو يدرك مسئوليته عن العلم ونشره في الأمة وفي أوروبة. وفات دوزي مثل آخر على أن استمرار نشر العلم مسئولية إسلامية هو أن الفلاسفة الثلاثة ابن ماجه وابن طفيل وابن رشد سيتعاقبون بعد قرنين في صحبة الخليفة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨- ٥٩٥). وهو في المغرب كصلاح الدين في المشرق، صاحب دين ورجل سياسة وبطل حروب كما كان في صحبة صلاح الدين القاضي الفاضل. أما عمر بن عبد العزيز والرشيد والمأمون ومن سار سيرتهم، فكانت مجالسهم وما تزال حديث الأجيال من هذه الناحية.

وكان طلاب العلم والأحبار من دول أوروبة يفدون على مدار القرون إلى الأندلس يتعلمون اللغة العربية. ليتلقوا بها أعظم علوم العالم المعروف في ذلك الحين في الرياضة من حساب وجبر وهندسة، أو في الفلك والطبيعة والكيمياء والطب والفلسفة من تأليف جابر بن حيان والكندي والخوارزمي والرازي وابن سينا والبيروني وبقية العلماء الذين سلف علينا شأنهم، وكثيرين غيرهم من فحول الأندلس ممن يشيد العلماء العالميون المعاصرون بهم.

ومنذ القرن الثالث للهجرة (التاسع الميلادي) كان ابن خرداذبه (٨٨٥ للميلاد) يذكر في تاريخه ما لم تعرفه أوروبة إلا بعد ظهور كوبرنيق وجاليليو وكبلر في القرنين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد: "أن الأرض مدورة كتدوير الكرة موضوعة في جوف الفلك كالمحة في جوف البيضة": وهاتان الحقيقتان يكرر ذكرهما المسعودي (٣٤٦ = ٩٥٦م) بعد قرن فيقول: "جعل الله الفلك الأعلى وهو فلك الاستواء وما يشتمل عليه من طبائع التدوير، فأولها كرة الأرض يحيط بها فلك القمر ويحيط بفلك القمر فلك عطارد". وهنا يضيف المسعودي طبائع التدوير في كل فلك وحياطة الأرض بفلك القمر والقمر بفلك آخر.

فالعالم العربي منذئذ يسبح في عالم من النور تنهل منه كل الشعوب.

ولما مات الخليفة الناصر سنة ٣٥٠ كان عدد سكان قرطبة نصف مليون وفي خزائنه من الدنانير خمسة آلاف ألف ألف ألف (ثلاث مرات) في حين كان إيراد الأندلس في أوائل أيام الدولة اثنى عشر ألف ألف وخمسة وأربعين ألف دينار. لكن ما خلفه في ابنه الحكم من شغف بالعلم كان أعظم قيمة وأبقى أثرا في العالم، إذ ولي بعده ستة عشر عاما حتى سنة ٣٦٦ كرسها للعلم وأسبابه ولم يبخل عليها بكل هذا المال. فإنما ينفقه على الإسلام وأهله وعلى أهل أوربة الذين لا يبرحون ينقلون ويترجمون ويتعلمون.

* * *

يقول صاحب حقائق الأخبار عن دول البحار: "كان الحكم محبا للعلوم مكرما لأهلها، جماعا للكتب بأنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله. روى قيم خزائن كتبه: أن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون (فهرست). وفي كل فهرست عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير – وأقام للعلم والعلماء سوقا نافقة جلبت إليها مصانعه من كل قطر.. وكان يبعث إلى الأقطار رجالا من التجار، ويرسل إليهم الأموال لشرائها حتى جلبوا منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه. وكان ذا غرام بها وقد آثر ذلك على لذات الملوك. وكان عددها على ما قيل أربعمائة ألف مجلد.... وأنهم لما أقاموها أقاموا ستة أشهر في نقلها. وجمع في داره الحذاق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والإجادة في التجليد واجتمع بالأندلس خزانة من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده. إلا ما ذكر عن الناصر العباسي (٦٢٢) بن المستضئ (٥٧٥)".

وإذا لاحظنا أن هذه المكتبة آلت إلى الأسبان حين استولوا على قرطبة سنة ٦٤٥هـ = ١٢٣٦م، عرفنا مقدار ما أفادوه من كتب العلم مترجما أو غير مترجم، فوق ما أفادوه بالقراءة والنسخ والترجمة في القرون الماضية.

وكانت الدولة موضع آمال أمراء أوربة: ومن الأمثال على ذلك سفارة من إمبراطور بيزنطة إلى الأندلس في سنة ٣٦٦ أعقبتها أخرى من ملك ألمانيا يرأسها حبر من مدينة متزبلتمون أن يكفيهم الخليفة غارات العرب المقيمين بجنوب فرنسا، وأفهم الخليفة السفراء أن إمارات العرب في جنوب فرنسا مستقلة عنه ثم وفدت رسل البابا يوحنا الثاني.

وحسب القارئ بيانا لسعة مدى الانتفاع بعلوم الأندلس في عالم الظلمات الأوروبي خطاب صادر إلى الخليفة هشام الثالث وقد حكم بين سنة ٤١٨ وسنة ٤٢٢ (في القرن الحادي عشر للميلاد) وفي نصه غنى عن التفصيل في شأن أوروبة وأهلها وشأو الأندلس وعلومها. هذا نصه:

"من جورج الثاني ملك انجلترا والغال (فرنسا) والنرويج، إلى الخليفة هشام الثالث[٤٩] بعد التعظيم والتوقير سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم في بلادكم العامرة فأردنا لبلدنا اقتباس هذه الفضائل لنشر أضواء العلم في بلادنا التي يحيطها الجهل من أركانها الأربعة وقد وضعنا ابنة شقيقتنا الأميرة دوبانت على رأس بعثة من بنات الأشراف الإنجليز"[٥٠]. من خادمكم المطيع جورج".

---

(٤٩) أما هشام الثاني فهو ابن الحكم بن عبد الرحمن الناصر. ولي من سنة ٣٢٢٦ إلى ٣٩٩ وأما هشام الأول فابن عبد الرحمن الداخل وقد حكم من سنة ١٧٠ إلى سنة ١٨٠ وهو فاتح نارون في فرنسا.

(٥٠) جون دوينبرث (كتاب العرب عنصر السيادة في القرون الوسطى) وأورد المؤرخ التركي عبد الرحمن شرف في كتاب (التاريخ العام) أن هذا الخطاب ألحقت به هدية شمعدانان من الذهب الخالص طول كل منهما ذراعان مع ٢٢ قطعة ذهبية من أواني المائدة (كتاب الأزهر في عيده الألفي ص١٨٩).

▪ صقلية:

لم تنفرد قرطبة بالعلم والتعليم بل كان لها نظائر في إشبيلية وطليطلة وبلنسية وبرشلونة وغرناطة التي كانت آخرتها سقوطا في يد الأسبان سنة ٨٩٧ للهجرة ١٤٩٢ للميلاد وكان فيها منذ سنة ٩٧٠ للميلاد ١٧ مدرسة كبرى و ١٢٠ صغيرة و ٢٧ مدرسة مجانية.

ولم تكن مدن الأندلس منفردة بل شاركتها صقلية وجزر البحر الأبيض، فقد أصبح بحيرة إسلامية بدأت سيطرة العرب عليها منذ انتصروا في واقعة ذات الصواري سنة ٣٨هـ ولما حاصر معاوية القسطنطينية سنة ٥٠ كانت سفائنه ألفا وثلثمائة وخمسين سفينة. كما سيطر العرب على قبرص وسردينيا وعلى قرشقة في سنة ١٩٥. وفي سنة ٢٠٠ كانت الإغارة على نيس في جنوب فرنسا وفي سنة ٢١٣ بدأ غزو صقلية على يد قاضي القيروان أسد بن الفرات، إذ كانت له إمارة الأسطول.

وحملت هذه الإمارة شعار الحضارة التي تنتقل إلى أوربة على يد عالم من كبار الفقهاء في التاريخ الإسلامي.

واستولى العرب بعد ذلك على مدينتي باري وبرنديزي في وسط إيطاليا وسيطروا على مقاطعتي كامبينا وأبروزي وأقاموا عليها إمارات عربية. وفي سنة ٢٢٥ استولوا على كالابريا في جنوب إيطاليا. وفي سنة ٢٢٨ استولوا على مسينا في إيطاليا،وهي واقعة على مضيق مسينا بين صقلية وجنوب إيطاليا، وفي سنة ٢٥٦ استولوا على جزيرة مالطة.

كانت صقلية طوال حكم العرب لها، معبرا للعلوم من الجنوب إلى قلب أوربة، حتى إذا استردها الرومان سنة ٤٦٤ (١٠٧٦) ظل ملوكها رسلا للعلوم الإسلامية إلى بلدان أوربة، وبقيت اللغة العربية لغة القصر الملكي، والعلماء يفدون عليها مدعوين إليه.

ومن الملوك الإمبراطور (روجير – روجار الأول ٤٩٠هـ) كان يجيد اللغة العربية ويكتب على وجه عملته (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وعلى الوجه الثاني اسمه.. وكان روجار الثاني (١١١٠– ١١٥٤) شديد الحرص على علوم العرب. يعلمه الإدريسي (٥٦٤هـ = ١١٦٩م) الجغرافيا على كرة من الفضة زنتها ٤٠٠ رطل، ليبين له النظرية الإسلامية التي تعارضها الكنيسة (كروية الأرض) ومعها خريطة تحمل تاريخ ١١٦٠م تظهر فيها منابع النيل الحالية، في حين يزعم الإنجليز أنهم اكتشفوها في أواخر القرن التاسع عشر، وما ذهبوا إليها إلا لاستعمار أفريقية. ولروجير الثاني ألف الإدريسي (الكتاب الرجاري) كما ألف لغليوم الأول الذي ولي بعده.

وحسبك دليلا على مكانة العلم العربي في القارة الأوروبية – حيث ملوك صقلية كانوا ملوكا في أوروبة – أن تستمر حاجة الملوك إلى الإدريسي فيدعى من قرطبة إلى صقلية بعد سقوط صقلية في أيدي هؤلاء بمائة عام.

obeikandl.com

إنشاء الجامعات والمدارس لترجمة العلوم العربية

كان الإقبال على نقل الكتب العربية على أشده بالأندلس وصقلية والحرب الصليبية دائرة الرحى في المشرق العربي – وهناك رأى المحاربون على أرض الواقع من مظاهر العلم ما يراه المتعلمون من أهليهم بأوربة في المعاهد والمساجد، وشهدوا في المدائن وسكانها من معالم الحضارة والصناعة والزراعة وأخلاق الحرب والسلم ما لم يكن لهم به عهد. فلما انهزموا عن بلدان المسلمين في نهاية القرن الثاني عشر، تحقق إجماع العامة والخاصة على الحاجة إلى تحصيل أسباب التفوق الإسلامي الذي كفل البقاء والنماء لدوله في المشرق، وما هي إلا الإسلام وعلومه. فحاربوا الإسلام وأقبلوا على علومه.

وبهذا انشغلت قرون كاملة بالتنقيب عن الكتب العربية وترجمتها ودراستها، فأصبحت مصادر للكشوف الحديثة في الفلك والطبيعة والجغرافيا والطب وغيرها.

وفي أواخر القرن العاشر الميلادي تتلمذ زمانا في إشبيلية وقرطبة واحد من رواد العلوم العربية إلى معاهد أوربة هو الراهب جربير ثم عاد إلى بلاده وترقى إلى كرسي البابوية باسم البابا سلفتر الثاني (سنة ٩٩٩ إلى سنة ١٠٠٣) فصار داعية لتعلم العلوم العربية وترجمة كتبها وأنشأ لذلك مدرستين.

واحدة في روما بإيطاليا وأخرى في ريمس بألمانيا.

وهو أول ناقل للأرقام العربية إلى أوروبة.

وفي القرن العاشر الميلادي كذلك أنشئت في سالرنو في جنوب إيطاليا، على مبعدة أميال من صقلية، مدرسة للطب يدرس فيها أساتذة مسلمون أو مستقدمون من بلدان الإسلام مثل قسطنطين الأفريقي (١٠١٥– ١٠٨٧٨) (نسبة إلى أفريقية وهو اسم يطلق على تونس من عهد اليونان) عاش في صدر حياته في القيروان (قرطاجنة) ثم عمل في التدريس وترجمة الكتب العربية بتكليف من فردريك الثاني ملك صقلية وانتهى راهبا في دير كاسينو في جنوب إيطاليا.

وقد اضطلع هذا الدير بدور معروف في حفظ ونقل العلوم العربية.

وفي القرن الحادي عشر سقطت طليطلة بالأندلس في يد الملك الفونسو سنة ١٠٨٥، فأنشأ مدرسة لترجمة الكتب العربية وسمى نفسه إمبراطور العقيدتين (الإسلامية والمسيحية) وجعل مسجد المدينة مكتبة عامة.

وفي القرن الحادي عشر كذلك أنشأ روجير الأول في صقلية مدرسة مخصصة لترجمة الكتب العربية الموجودة بالجزيرة أو التي تنقل إليها ومن خلفائه وليم الثاني، وكان من كتاب العربية وقرائها، شعاره المنقوش على خاتمه (الحمد لله وحده).

وترجم القرآن روبرت أنجلكز Robert Anglecos (١١٤٣) وتتابعت ترجماته للغات الأوربية الحديثة،واشتغل حماس الأفراد والرهبان والأديرة للترجمة بما يجل وصفه ولا يمنك حصر ما ترجم نتيجة له، خصوصا مع الإخفاء الرسمي المنظم لكل آثار العرب.

وفي سنة ١٢٠٧ أنشأت جمهورية جنوة مدرسة لتعليم اللغة العربية أي لنقل علومها، وفي القرن ذاته أنشأ فريدريك الثاني جامعة نابولي لترجمة الكتب العربية وتدريسها، وكان يراسل الفيلسوف الأندلسي عبد الحق بن سبعين ومن مقتنيات فردريك أهديت إلى جامعة بولونيا كتب الطب والفلسفة العربية.

وفي القرن ذاته أنشأ الفونس الحكيم (١٢٥٢- ١٢٨٤) جامعة في إسبانيا يدرس فيها رئيسها أبو بكر الرقوطي العلوم للمسلمين والمسيحيين واليهود.

وفي القرن ذاته أنشأ العرب المقيمون بجنوب فرنسا كلية للطب في مونبلييه يتخرج فيها المسلمون والفرنسيون والوافدون من أوروبة. ومن هذه المدرسة ذاع أمر كتاب ابن سينا في الطب (القانون) وكتاب الرازي (الحاوي والمنصوري) فصارت تدرس في كل أوربة حتى أواخر القرن السابع عشر.

وتنافست في دراسة الطب جامعتا سالرنو في إيطاليا ومونبلييه في فرنسا وفي القرن ذاته انشغل الراهب البرت الكبير Albert Magnus بالكتب العربية، فترجم كتب الغزالي وابن سينا وألف كتابا بعنوان (مآثر العرب) ويدل عنوان الكتاب على تأثير العرب في أوروبة بمثل ما يدل وصف هذا الراهب (الكبير) على أثره في الفكر الكنسي وهو أستاذ القديس توماس الإكويني.

وقد حاربت الكنيسة البرت الكبير زمانا ثم سمحت له بتدريس فكره بمدرسة في باريس ثم عاد إلى كولوني في ألمانيا.

* * *

أما ابن رشد فنشرت مؤلفاته بعد موته مباشرة (بنيف وعشرين سنة) إذ ترجمها ميخائيل الإيقوسي سنة ١٢١٧ فصار م ناشياعها واملدافعين عنها روجير بيكون من الإنجليز وجماعة الفرنسيسكان ومنهم سيجردي برابان (١٢٣٥- ١٢٨٥) الأستاذ بجامعة باريس فحرمته الكنيسة، ولاحقت بالحرمان كل من يدرس فلسفة ابن رشد حتى بلغت أوامر الحرمان أربعين أمرا في سبعين عاما حتى سنة ١٢٦٩. وفي سنة ١٣٠٨ عارض دنز سكوت (١٢٦٦- ١٣٠٨) وهو إنجليزي من الفرنسكان آراء ابن رشد وتوماس الأكويني، في حين مجدتها جامعة تولوز وقررت تدريسها.

أما القديس توماس الأكويني وهو دومنيكاني فدرسها دراسة عميقة ونقل منها فصولا بتمامها في رده على آراء الغزالي، وبهذا دخل في الخلاف الفلسفي بين الغزالي وابن رشد ناقلا من كتب ابن رشد دون أن يشير إلى مصدره.

يقول المستشرق الفريد جيوم وهو واحد من أساتذة اللاهوت في كتاب "تراث العرب".

(وقد لبث تأثير ابن رشد متغلغلا في إيطاليا حتى القرن السادس عشر وقد لبث عاملا حيا في الفكر الأوروبي حتى فجر العلم الحديث، واحتفظت اللغة اللاتينية بأكثر من مؤلف من مؤلفاته وإن كانت العربية قد فقدتها. أما في الغرب فقد وفق ابن رشد إلى الاستيلاء على طلاب العلم القدماء.. وقد استفاد القديس توماس من كثير من الأدلة التي سبق أن أقامها الفيلسوف الإسلامي ابن رشد. وبين موقفي ابن رشد والقدس توماس تشابه ينبئ عن شئ أكثر من التجانس العقلي بينهما. والفصول المعروفة التي كتبها القديس توماس في ميدان العقل والعقدية.. نجد لها قسما يقابلها في كتابات ابن رشد.. وتتعدد أوجه الشبه بين ابن رشد والقديس توماس لدرجة تستلزم البحث عن شئ أكثر من مجرد الاتفاق بينهما... وقد جمع ابن ميمون (ميمونيد اليهودي) [٥١] كثيرا من أفكار ابن رشد في مؤلفه العظيم الذي كان القديس توماس يستشهد به ويشير هذا القدس في كتابه (مسائل جدلية) إلى ابن رشد.

---

(٥١) انظر ص١٥١.

ذلك والقديس توماس (٦٢٢- ٦٧٣ = ١٢٢٥ – ١٢٧٤) قد تلقى علوم العرب من مصادرها في صقلية. والتحق ببلاط ملك صقلية. كما التحق به عمه وصار سفيره إلى سلطان مصر. وقد ذاعت شهرة القديس بردوده على الغزالي.

واهتم الغزالي وكتبه في العصر ذاته ريموند مارتن (١٢٣٠- ١٢٨٦) وهو من مدرسة الوعاظ بطليطلة بالأندلس. وهو أول من وضع قاموسا عربيا لاتينيا، ووضع قاموس للغتين يبين ضخامة الترجمة وتكاثر التراجمة وانشغال العلماء الأوربيين بالعلم المترجم. ولريموند مارتن كتاب (خنجر الإيمان ضد المسلمين واليهود) وفيه تظهر سعة اطلاعه على القرآن والحديث وفلسفة الإسلام ومعارضته لأقوال الغزالي بحجج الفارابي (٣٥٣هـ = ٩٥٠م) وابن سينا وابن رشد أعدتها المدرسة التبشيرية.

فهذه مدرسة بتمامها تدخل طرفا في النزاع بين فلسفتين إسلاميتين وتتداول مؤلفات فلاسفة الإسلام الأربعة العظماء وعنها تنقل جميع المدارس.

وفي سنة ١٢٧٦ تأسست كلية للرهبان على يد Raymuyndus Lullus ريموندلل (١٣١٥) وتخصصت في دراسة اللغة العربية، أي لدراسة العلوم بها وكان يحذقها، ومعنى ذلك أن قراءة الكتب العربية كانت مهمة المتعلمين في هذه الكلية في القرن الرابع عشر وما بعده.

وريموند من أصحاب السبق في النظرية التبشيرية لاستبدال البعثات التبشيرية بالحملات العسكرية الصليبية.

وفي هذا القرن تداولت أوربة كتاب مرآة الطبيعة لفنفست نوفيس وهو "موسوعة في المعارف العربية".

* * *

وفي سنة ١٢٩٤ مات روجير بيكون، وهو حبر فرنسسكاني من الإنجليز حصل على الدكتوراه في اللاهون من باريس وتعلم الطبيعة والكيمياء في دير (كورد لييه) بباريس وكانوا

يسمونه L'admirable docteur الحبر الجدير بالإعجاب. تعلم العربية في الأندلس وأكب على دراسة الحسن بن الهيثم والكندي واهتم بالطبيعة والكيمياء، وظل طوال حياته يعلن أن العلم العربي أساس المعرفة ودرس هذا العلم في باريس واكسفورد. وله بحوث في أمور تنشغل بها التكنولوجيا في عصرنا الحاضر مثل العدسات والمحركات والطائرات، وكان يعلم أن الفلسفة مستمدة من العربية وينتقد منطق أرسطو ولا شك أن نقده لمنهج أرسطو، راجع لدراسته المنهج الإسلامي الذي يتجلى في تجارب الحسن بن الهيثم ومبادئ الكندي، وقد أسلفنا كلامه عنهما.

وفي سنة ١٣١١ أصدر مجلس فيينا قرارا بجواز تدريس العلوم العربية في باريس وسلامنكا. وفي منتصف القرن الرابع عشر، أنشأ الملك الفونسو الأول ملك قشتالة (١٣٢٨-١٣٥٦) مدرسة جديدة تخصصت في ترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية. هكذا كانت الترجمة إلى اللاتينية مشغلة القرن الرابع عشر.

وفي القرن الخامس عشر ظهرت المطابع وظهرت طبعة لكتاب الزهراوي (١٠١٣م) المترجم من قبل وهو (التصريف لمن عجز عن التأليف) فأصبح عمدة الجراحة في كل أوروبة.

وفي القرن السادس عشر طبعت ترجمة قديمة لكتاب ابن النفيس ونقلت نظريته وطبعت ثلاث طبعات، كما سلف البيان، فتعلم عليها هارفي (١٦٥٨) في جامعة بادوا نظرية الدورة الدموية وأجرى تجاربه عليها إذ عاد إلى انجلترا فنسبها الأوربيون إليه. وكانت طبعات لكتب الغزالي والرازي وابن سينا تملأ دور العلم والأديرة والمكتبات الخاصة.

وهذا الذي نذكره عن الكتب المطبوعة أو المترجمة، علامات على ما أصدرته المدارس المخصصة لذلك مما لم يصل علمنا في العصر الحاضر، فليس عجيبا أن نقرأ للمستشرق الفردجيوم أن من كتب ابن رشد ما لم يصل للعرب – حتى الآن – في حين كانت بين أيدي القديس الدومانيكاني توماس الأكويني والكثيرين من العلماء الأوربيين.

* * *

وليس في الإمكان إحصاء المترجمين، فذلك كهيئة إحصاء المدرسين أو المتعلمين من الأوربيين، فالمتعلم يتلقى العلم بالعربية ليترجم ما يتعلمه ويترجم غيره، وإن كان من الممكن ذكر بعض المشهورين أو المكثرين من المحترفين من أسبان وألمان وإنجليز ويهود وطليان، مثل جيرار الكريموني (١١٨٧) وقد ترجم ٧١ كتابا ابتداء من كتب الكندي، وترجم الكثير مثله

أفلاطون التيفولي وأدلارد الباثي (اف باث) ويوجين البلرمي (من بلرم) عاصمة صقلية وردجراف هارفورد. ودانيال الموريللي والباجو.

ومن المتخصصين من تفرغوا لعلوم بذاتها فطوفوا في البلاد لاستقصائها مثل أدلارد الباثي زار مصر وآسيا الصغرى لدراسة الرياضة والفلك وفيبوناتشي زار مصر وسورية لدراسة الجبر في عصر فردريك الثاني ملك صقلية. وفي إنجلترا ظهر أن كتاب "حكم الفلاسفة" طبع بالإنجليزية بعد ترجمته من الفرنسية نقلا عن نص لاتيني ترجم أصله العربي. كما ترجم ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة من قديم، لحساب الملك الفونسو الحكيم، ومنه أفاد شعراء عصر النهضة وما يزالون يستفيدون في كل أوربة.

وحسب الترجمة للكتب العربية في بيان حجمها البالغ حجم (مصانع الإنتاج الكبير)في أكثر من دولة: أن تنشأ لها مدرسة فما بالك بمدارس، أسلفنا ذكر إحدى عشرة مكنها في ست دول أوربية، عرفنا منها الحكومي ولم نعرف غيره،مما ندبت نفسها له الأديرة بلا عدد، والجامعات والأمراء والعلماء والتلاميذ، لنستخلص أن الذي ترجم كان علم أمة بتماه يتزاحم على مورده عالم متعطش للمعرفة التي مازت هذه الأمة ليلتقط أسباب امتيازها فيشركها في الانتفاع به إن لم يمكنه تجريدها منه.

وكان طبيعيا، وميلاد هذا الإقبال في عهد الحروب الصليبية، ألا يرتاح بال المتزاحمين إلى أن هذه الفتوح العلمية على المسلمين، مردها إلى دينهم أو إلى اختصاصهم بمنهجهم التجريبي، الذي شرعه لهم دين يعلن حرية العقل ويوجب استعماله ويستبعد كل ما يعطله ويأمر بالتعلم والتعليم واستقراء طبيعة الأشياء وواقع الظواهر، فكانوا يزدادون إقبالا على العلم، وكيدا للدين، وإخفاء للمصادر التي ينقلون عنها.

الحروب الصليبية وآثارها التدميرية في العلوم الإسلامية

لقد كان المسلمون ينشرون العلم في غير المسلمين المقيمين بين أظهرهم أو الوافدين على بلدانهم متمتعين بالحماية التي يحمي بها الإسلام "أهل الذمة" فالرسول عليه الصلاة والسلام

يقول: "من آذى ذميا فأنا خصيمه" والمسلمون يعترفون بالديانات السماوية ويحترمون علماءها كاحترام العلماء المسلمين، في حين لا يعترف أصحاب الديانات الأخرى بالإسلام، وسيترتب على ذلك أمران:

الأول: أن حقوق غير المسلمين في تلقي العلم مكفولة، لأن الإسلام ينشر المعرفة في الجنس البشري ويقدر الرؤساء قدرهم، حتى لنسمع بطريرك القسطنطينية عند فتحها سنة ١٤٥٣م يقول: "إني خجل مما لا قيته من التبجيل والاحتفال الذي لم يفعله ملوك النصارى مع أسلافي".

والأمر الثاني: أن غير المسلمين قد حضهم التعصب على استنزاف قوى المسلمين طوال قرون الترجمة، وتقاطرت وفودهم على الأندلس تطلب العلم وتنسخ كتبه، فالمسلمون لا يعتبرون عدوا لهم إلا من يحمل السلاح عليهم.

وخاض ملوك أوروبة وأمراؤها الحروب التي سماها أحبار الكنيسة (الحروب الصليبية) ونفذت صيحات الكنيسة وأحبارها إلى قلوب الرعايا بالفزع من صعقات من السماء، يملك أسرارها الرهبان بصكوك الغفران!

وكان للكنيسة عند الفكر الإسلامي ثأران: ثأر من جراء الحرية الفكرية والصلة بين الله وعباده دون وسائط مما ينفي سلطان الكنيسة على الأفكار وثأر من دعوة ابن رشد وتمجيده للعقل وإقبال الأوربيين على مؤلفاته وهو القائل إن: "أفظع الظلم ظلم القساوسة".

ومن التعصب جرت أنهار الدماء. يقول المؤرخ الإنجليزي جبون في كتابه(تاريخ اضمحلال وسقط الإمبراطورية الرومانية): "لم تتعادل الشهوة الدموية لجنود الإمبراطورة تيودورا مع أبطال الحروب الصليبية إلا في فظائع البطش والقسوة. ولكن البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦) تجاوز الشهوة الدموية لهذه الإمبراطورة كما أزرى بقسوة قساوستها بطش الذين أسسوا محاكم التفتيش. وكانت نظاما يفتش لعمل الشر لا لدفعه".

واجتمع إلى هذا اللوث الفكري رجوع الجيوش الأوربية منهزمة على مدى قرنين طويلين تعمقت فيهما كراهة الإسلام وأهله، فأمست تراثا تجمعت عليه أشتات الإمارات والإقطاعات من أنقاض تلك الشعوب فقامت دول أوروبة الحديثة وفي ذلك قول المؤرخ جيزو رئيس وزراء فرنسا

في القرن التاسع عشر في كتابه تاريخ أوروبا من عهد سقوط الإمبراطورية الرومانية[٥٢] "إن الحروب الصليبية في الواقعهي الحادثة البطولية لأوربة الحديثة". وهذا الواقع البطولي هو الذي جمع الأمم الأوربية على أصل (عقائدي) من التعصب ضد الإسلام، والخوف من العرب. وهو الذي وجه المكتشفين للبحث عن طريق يتفادى طريق العرب إلى الهند فعثروا على الأمريكتين.

* * *

ومن العجيب بالنسبة لأوروبة أن يكون القرنان اللذان استطالت فيهما الحروب الصليبية قرني نقل العلم وترجمته على نطاق واسع من كتب الإسلام، وبيان ذلك في أقوال أكبر الأحبار الإنجليز (روجير بيكون) وأكبر أحبار الألمان (البرت الكبير) صاحب كتاب "مآثر العرب" وقد عمرا أغلب القرن الثالث عشر وأقوال رينان في القرن التاسع عشر.

والقارئ لكتاب "تراث الإسلام"، وقد وضعته جماعة المستشرقين الإنجليز من المسيحيين في النصف الأول من القرن العشرين، يدرك ميلهم عن الإسلام مع إقرارهم بأثر العرب في الفكر الكنسي ذاته وفي الشعر الأوربي، واللغات المستحدثة الحالية من لغات أوروبة، والمنهج العلمي، والعلوم والآداب والفنون التي بذرت بذورها في العصر الوسيط وارتفع بنيانها في عصر الإحياء ليؤتي ثماره في عصر النهضة، على الرغم من مقاومة الكنيسة والملوك والشعوب.

ولقد كان للكنيسة محاكمها التي طالما حكمت بالإعدام مثل محاكم الملوك العادية. ولها أملاكها التي تفوق ضخامتها أملاك الملوك مجتمعين، فالسلطان الكنسي والتعصب الديني ضد الحرية أعدم الإنجليز القديسة الفرنسية (جان دارك) (١٤٣١) وأعدمت الكنيسة الكاهن فان ريزويك (١٥١٢) وحرقت سرفيه (١٥٣٣) وفي سنة ١٥٣٥ قطعت رأس القديس توماس مور لعدم إخضاع الكنيسة للملك هنري الثامن وفي سنة ١٦٠٠ قطعت الكنيسة رأس برونوبل سجد جاليليو أمام محكمة من القساوسة ليستبقي من حياته بضع سنين حتى سنة ١٦٤٨ فأنكر كل نظرياته. ومع ذلك كان يتمتم وهم يقتادونه خارج قاعة المحاكمة Epur Si muove ومع ذلك فهي تدور" وهو يعني أن الأجرام تدور حول نفسها وحول الشمس، مكا أعلن كوبرنيق (١٥٤٣). وهي النظرية الإسلامية: أن الشمس مركز الكون. وصل إليها كوبرنيق على أسس من نظريات عالم الطبيعة الحسن بن الهيثم والفلكيين المسلمين الكثير في حين حرمت الكنيسة نشر كتاب كوبرنيق سنة ١٦١٦.

---

(٥٢) L'histoire de L'Europe dequis la chute de L'Empire Romain

وفي القرن السادس عشر أعدمت محاكم التفتيش بإسبانيا عشرات الآلاف من المسلمين الذين لا يتنصرون أو الذين يتنصرون فيتهمون بعدم صدقهم في تنصرهم. وفي سنتي ١٦٠٩-١٦١٠ أمرت الحكومة بإجلاء الأحياء من العرب إلى أفريقية فجلا نحو مليون قتل منهم في البحر مئات الألوف. وفي قافلة من ١٤٠ ألفا قتل مائة ألف.

على هذا الوجه أجلى العرب نهائيا من إسبانيا وحرقت وسرقت مؤلفاتهم آلافا ومئات آلاف. واستمر أهل أوروبة على تعصبهم ليستبدل المستعمرون للهند وأندونيسيا والعالم العربي بالحروب الصليبية النظرية التبشيرية.

* * *

وكان من سنن الله في الكون أن يؤاخذ الله الدول الإسلامية بظلمها وجهلها وتفرقها فترجع القهقري في حين تتقدم الدول الأوربية بالعلم والعدل، وتكشف عن العالم الجديد وتحدث الثورة الصناعية حتى عظم أمر الاستعمار. ففتح تخلف المسلمين واستعمار الأوربيين لبلدانهم هوة سحيقة الأعماق في ضمير التاريخ الأوروبي، أخفى فيها كنوز التراث العلمي الإسلامي. ووجد المتعلمون المسلمون أنفسهم يستوردون العلوم الإسلامية من مراجع فرنسية وإنجليزية وألمانية وهولندية وإيطالية وإسبانية،ويقنعون بمحاولة إحصاء كتبهم في خزائن أوربة. بل يدخل فيما يستوردون من العلوم دراسات في الدين والسنة النبوية واللغة العربية.!

وفي القرن الميلادي الماضي وفاتحة هذا القرن، بدأنا نسمع أصواتا منصفة للعلوم الإسلامية في العصر الوسيط. تعلن حقائق تأثير العلوم العربية في النهضة العالمية العلمية، وقل التاريخ الأمور لكثيرين منهم (دانتي ١٢٦٥- ١٣٢١) الملقب بأبي الشعر الإيطالي، لتظهر في الكتاب الذي خلده (الكوميديا الإلهية) آثار دراساته العربية ومنها أفكار من رسالة الغفران للمعري، ورسوم خطها الفيلسوف الإسلامي محيي الدين بن عربي، ونراه يضع ابن رشد في الجحيم حيثما كانت تضعه الكنيسة الكاثوليكية كما يذكر اسم صلاح الدين(٥٣).

---

(٥٣) يقرر ذلك القسيس المؤرخ ميجل اسيني بلاثيوس في كتابه (صور إسلامية في الكوميديا الإلهية) وهو مترجم للإنجليزية والفرنسية. ويؤيده آخرون متعددون يضيفون أن دانتي أقام في صقلية في عهد فردريك الثاني. وقد مر بنا اهتمامه بالثقافة العربية وترجماتها وهو الذي أنشأ جامعة نابولي لترجمة كتب العرب، كما يضيفون أن دانتي أقام في بلاط فلورنسة حيث كانت تترجم الكتب العربية، ويؤكد ذلك سندينو في كتاب (معراج محمد) عن طريق اتصال دانتي بمخطوط عربي للمعراج ترجمه بأمر الفونسو العاشر إبراهام الحكيم

* * *

وثابت أن دانتي وضع كتابه بعد مائة عام من موت ابن عربي، وأن رسالة الغفران ترجمت في عصر الملك الإسباني الفونسو الحكيم، وأن أستاذ دانتي (بروفينولاتيني) كان يجيد العربية بل كان سفيرا لبلاده في الأندلس، وأن دانتي كالقديس توماس الأكويني، قضى حياته في محيط من الدومنيكان المشبع بالثقافة العربية.

والأدب العربي ظاهر في أعمال بوكاشيو (١٣١- ١٣٧٥) وهو من كتاب النثر الأوائل في اللغة الإيطالية الحديثة، وقد تأثرت كتاباته بألف ليلة وليلة، ويعلى بترارك (١٣٠٤- ١٣٧٤) قيمة الأدب العربي حين ينكر فضله بتعصبه الديني فيصيح: يا للعجب هل كتب علينا ألا نكتب بعد العرب. بل يقول عن ابن رشد: ذلك الكلب الكلب. فدمغه ودمغ دانتي معه المستشرق جب في القرن الحالي بقولي في كتاب "تراث الإسلام".

"إن الثورة الوطنية التي قام بها بترارك ضد العرب، إن أثبتت شيئا فهي تثبت على الأقل أن الشعر العربي كان معروفا في إيطاليا في ذلك الوقت، والمقارنة بين عصر بترارك وعصر دانتي تدل على أن دانتي كان يعرف ويعلم ويقرأ الكتب العربية" بل يروي المؤرخ دوزي – رسالة للكاتب الفارو يقول فيها "إن أرباب الفطنة والتذوق سحرهم الأدب العربي، فاحتقروا اللاتينية وجعلوا يكتبون بلغة "قاهريهم" لا بغيرها".

وأثر الأدب العربي ظاهر في بعض أعمال شوسر أبي الشعر الإنجليزي التي وضعها بين ١٣٧٣ سنة ١٤٠٠. وفي أعمال سرفانتس الأسباني وقد حي حياته (١٥٤٧- ١٦١٦) والعرب في إسبانيا وسجن في المغرب. وأفصح عن أنه نقل عن العرب روايته الشهيرة (دون كيشوت).

وتجد التأثير العربي في أعمال شكسبير في القرن السابع عشر وفولتير في القرن الثامن عشر وجيته وهوجو، وغيرهم في القرن التاسع عشر. وسيبقى الأثر ويستمر، فالحضارة عطاء السماء، والمادة لا تفنى، والعصور متداخلة، والفكر الإنساني سلسلة حلقاتها متصلة.

قبل ميلاد دانتي. وإن من المعروف أن دانتي كان يقول: الشعر الإيطالي مولود في صقلية – وفي إيطاليا شب عصر الإحياء ليبلغ أشده في أوروبة.

وما يزال الأثر العربي ظاهرا في العمارة في قصور الأندلس وفي جنوب فرنسا وفي إيطاليا وجزر البحر الأبيض وفي فرنسا في شاتوجيار (١١٨٦) وكنيسة ماجلون (١١٨٧) وكنيسة جامانس (السوم).

يقول جوستاف لوبون: "إن بعض المدن الإسبانية لاسيما إشبيلية ماتزال بيوتها تبنى على طراز إسلامي، ولا تزال زخارفها والرقص والموسيقى فيها على الطريقة العربية ويشاهد الدم الشرقي فيها بسهولة".

وينقل فيارد عن تاريخ باريس لدولور: "أن مهندسين معماريين عربا استخدموا في إنشاء كنيسة نوتردام في باريس".

بل عثر الأثريون في أيرلندة على صليب منقوش على زجاجة مكتوب في وسطه بحروف كوفية (باسم الله الرحمن الرحيم) ووجدوا في أردية البابوات كتابة كوفية عليها اسم (الله).

وكان للموسيقى العربية أثرها في أسبانيا، كما كان لظهور شعراء التروبادور وقصصهم أثره في تاريخ جنوب فرنسا في مقاطعة (بروفانس) وذوقها العام، بل في نشأة الشعر الأوروبي الحديث.

والشواهد على الواقع العربي تتردد على اللسان[٥٤] في كثير من اللغات. وما هي إلا أدلة على حضارة متغلغلة في ضمير العالم المعروف ودوله، لا يحجبها تغافل العارف، فلم تبعث أوربة من موت وإنما صحت من سبات.

---

(٥٤) إليك بعض أمثال من كلمات عربية دخلت في اللغات الأوربية ولا يمكن حصر ما في الإسبانية والبرتغالية.

الحوالة	Aval	سعد السعود	Sadalsud
خرشوف	Artichofa	العضادة	Alidad
الرطل	Arratal	السوق	Alzoque
قطن	Cotton	كف	Caph

Magazan	مخزن	Fond de commerce	فندق
Alhandal	الحنظل	Apricot	برقوق
Allbarran	البراءة	Hasta	حتى
Mounlin	حرير الموصل	Damas	حرير دمشق
Boussale	بوصلة	Arsenal	دار الصناعة
Tartar	طرطير	Atanor	التنور
Annaquel	الناقل	Fulano	فلان
Covdevan	الجك	Jupe	الجبة
Alexir	الإكسير	Felouque	الفلك
Alchemy	الكيمياء	Agcahal	الكحول
Garabe	شراب	Azenhaga	الزقة
Musk	المسك	Saffron	الزعفران
Risk	رزق	Avare	عوار
Alkali	القلوي	Borax	الورق
Gibraltar	الجبل (طارق)	Alqur	القرى
Syrup	الشراب	Sofa	الصفة
Tare	طرح السفينة	Corsa	كرس الجوزاء
Tabacheer	تباشير	Regulas	رجل الأسد
Almenara	المنارة	Guadalcotton	وادي القطن
Fice	الأرز	Lemon	الليمون
Asimuch	السمت	Sugar	السكر
Denab al gadi	ذنب الجدي	Saif	السيف
Alkaid	القائد	Auga	أوج
Al ramla	الرملة	Almargen	المرج
Corree	القهوة	azotea	الطبخة
Orange	البرتقال (النارنج)	Luben gearl	زاني عقرب
Ozhe	أضحى النعام	Asimach	السماك الأعزل
Wezn	الوزن	Genalarife	جنة العريف
Benat naeh	بنات نعش	Altatcha	الطرحية
Gua dilupe	وادي الحب	Denub	الذنب
Alquatran	القطران	Alnast	النصل
Sader	صدر الدجاجة	Durra	ذرة
Almary	المرئ	Algiberra	الجبيرة

الفصل الثاني

من رسالة الشافعي إلى المنهج الجديد

NOVUM ORGANUM

طلع الفجر في عصر الإحياء في أوربة في أضواء العلم العربي، الذي يتداخل كتداخل الثقافة العربية، في معارف عصر الإحياء – كما بنا – في أعمال دانتي وسرفانتس وغيرهم من

Medina	المدينة	Arnab	أرنب
Than	الطاحون	Amiral	أمير البحر
Zaured	الزوزق	Alhanet	الحناء
Algenib	جنب الفرس	Alcade	القاضي
Tauri	قرن الثور	Gauze	حرير غزة
Aldiboran	الدبران (نير الثور)	Dinar	دينار
Alcoba	القبة	Arsenic	زرنيخ
Wega	النسر الواقع	Almehada	المخدة
Almacantar	المقنطر	Mouocco	الجلد المراكش
Courtlemus	قرطم	Talisman	طلسمان
Alhage	الحجر	Alcatran	القطران
Fistic	فستق	She allah	إن شاء الله
assaguia	الساقية	attard	العطر
Batein	البطين	Caliber	قالب
Alferaty	سرة الفرس	Alnatron	النطرون
Doum	دوم	Gibelcuz	الجبل (كرز)
Errai	الراعي	Gar	الجرة
Nairalyaruek	نير الزوزق	Altaref	طرف السفينة
Bonduc	بندق	Mirfac	مرفق الثريا
alcatifa	القطيفة	guad	الوادي

أصحاب الأسماء التي ذكرناها أمثلة،وفي أقوال بترارك الثائرة وأقوال الفارو وجوزي وجب الواضحة، وكما سيظهر من دراسات كثيرين.

ومن هذا العلم ظلت كتب الطب تدرس كأنها الإنجيل في جامعات أوربة في بدايات عصر النهضة حتى أواخر القرن السابع عشر للميلاد، ويدل ما يدرس في الجامعات على ما يعكف الأحبار على دراسته أو دراسة نظائره بالأديرة والمكتبات الخاصة، والأحبار هم علماء هذه العصور وعلماء عصر النهضة. وفي الأديرة جميعا مخطوطات ومطبوعات أشرنا إلى بعضها في الفصل السابق. وفيها ما ترجمته "مدارس الترجمة" التي نشطت طوال القرون التي تحدثنا عنها، وهي ترجمات كتب رياضية وفلكية وطبية وهندسية وفلسفية وجيولوجية وتاريخية وأدبية، ينتفع بها منذ القرن الثالث عشر ومن قبله أمثال رجير بيكون و(ديرليكو لد لييه في باريس)وألبرت الكبير في أديرة ألمانيا وتوماس الأكويني في إيطاليا كما انتفع بها كوبرنيق في القرن الخامس عشر وجاليليو وكبلر في القرن الخامس عشر والسادس عشر. وكما استفاد من خرائطها هنري الملاح (١٤٦٦) وكولمبوس وأمريجو فسبوتشي وفاسكو دا جاما (١٥٢٤) في كشوفهم للعالم الجديد والقديم، بل كان كشف طريق الهند حول أفريقية كشفا عالميا مشتركا بين عالم كبير عربي (ابن ماجد) وبين مكتشف برتغالي هو فاسكو دا جاما في القرن الخامس عشر. ولم تكن هذه الخرائط في الجامعات وحدها وإنما كانت في مكتبات الأديرة وقصور الأمراء أو لدى العلماء.

وكما بقيت مؤلفات ابن سينا والرازي في الطب والكيمياء وتجاربهم علوما تدرس في الجامعات ظلت تطبق فقي العلاج في مجتمع عصر النهضة.

ولما كشف نيوتن (١٦٤٢– ١٧٢٧) قوانينه في الضوء والجاذبية كانت تسبقه كشوف عربية في الموضوعين أشرنا إلى أصحابها في الفصل الثاني من الباب الثالث.

* * *

وليس تداخل المنهج الفكري الإسلامي في المنهج الأوربي أقل، وإنما هو أكبر وأكثر فاعلية. فالمنهج الإسلامي المأمور به في القرآن قائم على استقراء الواقع بملاحظة الأشياء والاستنباط منها، ومعمول به في تجارب العلماء المسلمين منذ نزل القرآن. وسنرى أيلولة هذا المنهج إلى العصور الحديثة إحدى المسلمات. والتجريب استقراء واستنباط، قوامه ملاحظة الأشياء وترتيب نتائج على الملاحظات وامتحان النتائج بتجريب حتى تستقر.

وعلى هذا الأساس كانت التجربة "علما" تعلمه وباشره أو اعتمد عليه العلماء المسلمون، يستوي في ذلك أئمة الفقر أو الفكر، كما أوردنا أمثلة خمسة عليهم في الفصل الأول من الباب السابق، وأئمة العلوم التطبيقية من رياضية أو طبيعية، وقد أوردنا أمثلة عليهم خمسة عشر، واستكثرنا من النوع الأخير لتشابه عملهم التطبيقي مع عمل العلماء المعاصرين ولوحدة العلوم عند الجميع. والاستقراء إدراك حسي، تهدي إليه الحواس، والاستنباط هو الاعتبار العقلي بما يثبته الاستقراء، ولقد بينا من قبل العروة الوثقى بين أعمال التجريبيين واجتهاد العلماء بأصول الفقه من بحث العلل والاعتبار بالواقع، ومن الاعتبار القياس أو كما يقول الشافعي: "والاجتهاد القياس أو هما اسمان لمعنى واحد".

والأقيسة في القرآن والسنة كثيرة ليتعلم منها الناس. وعمل الصحابة والتابعين بالقياس لا يحصى وإن عرفت منه أمثلة. ففي عهدهم حدثت أمور جديدة للدولة والجماعة والأفراد في شئون التعامل والمعاش والجهاد ومخالطة الشعوب التي دانت بالإسلام فكان لزاما أن يجتهدوا آراءهم ليستنبطوا حكم الله فيما لا يعرفون حكمه بالقياس على حكم ما يعرفونه، وهم عليمون بحكمه ومعانيه، وعمل الرسول وقوله. وكان الصحابة متوافرين وإجماعهم هو الصواب بعينه.

كان العراق بعيدا عن مهبط الوحي في مكة والمدينة وقل نقل السنة إليه، فاجتهدوا على أساس القياس، ونشأت في الكوفة مدرسة القياس أو الرأي – أي الاجتهاد – ليتسع مداه باتساع الحاجة.

وكانت مدرسة القياس الفقيه بالكوفة رائدا لمدرسة القياس في اللغة والنحو، وعلى رأسها الخليل بن أحمد (١٧٥) واضع علم النحو وتلميذه سيبويه (١٨٠) بالكوفة وتتابع في آثارهما علماء اللغة كالكسائي والفراء وثعلب، فوجدنا سيبويه بجمع بالاستقراء مما تفرق من أقوال الشعراء ألفا وخمسمائة بيت من الشعر، كما يجمع أقوال الخطباء والعلماء ويرتب ذلك ويبوبه ويستخلص منه قواعده. وانفتح باب الاشتقاق وقواعد النحو والصرف على أساس استقراءات ناقصة لا محالة لأنها لا تحطي بكل ما سمع من العرب، وأصبح القياس أداة في اللغة. قال الكسائي:

إنمـــا النحـــو قيـــاس يتبـــع وبـــه فـــي كـــل أمـــر ينتفـــع

وكان القرآن – وما يزال – مصدرا أول للغة حيثما توجه العلماء إلى جمعها وفهمها، وفي ذلك قول العماد الأصفهاني: "ألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم".

واشتهر من علماء اللغة القياسون في القرون اللاحقة، كأبي علي الفارسي (٣٧٧) وابن جني (٣٩٢) وابن الأنباري (٥٧٧) ورأينا ابن جني يعقد فصولا بتمامها من "كتاب الخصائص" مقابلة لفصول في علم أصول الفقه. ففصل في جواز القياس، وفصل في تعارض السماع والقياس، وفصل في الاستحسان، وفصل في العلل، وفصل في إجماع أهل العربية ومتى يكون حجة.

ولا جرم كان القياس أنجح في الفقه لاعتماده على مسلمات من النصوص، ولأن الاستقراء فيه أيسر من استقراء الكلمات والأساليب العربية. وأبو عمرو بن العلاء (١٥٤) صاحب قراءة خاصة بالقرآن وثقة الجمع في علم العربية بلغات القبائل بالسماع يقول عنه ابن خلكان "كانت له كتب كتبها عن العرب وقد ملأت بيتا إلى قريب من السقف" وأبو عمرو يقول: "ما انتهى إليكم من شعر العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير".

وأخذت مدرسة القياس في اللغة عن أصول الفقه دلالة الألفاظ على المعاني، وقسمتها تقسيم الفقهاء من دلالة مطابقة إلى دلالة تضمن ودلالة التزام. كما أخذت تقسيم الألفاظ بالنسبة لعموم المعنى وخصوصه وتقسيمه إلى مشترك ومترادف.

وكان أثر أصول الفقه في علم الكلام كبيرا. وكثر المتكلمون أو علماء أصول الدين في المذهب الشافعي على مدار القرون، فمنهم أبو الحسن الأشعري (٣٣٠) شيخ الأشاعرة وهم كثر في أهل السنة. والباقلاني (٤٠٣) والإسفرائيني (٤٠٦) وإمام الحرمين الجويني (٤٧٨) والغزالي (٥٠٥) والعز بن عبد السلام (٦٦٠) وكلهم أعلام في أصول الدين والفقه.

- **استبعاد منطق أرسطو:**

وكما يقوم المنهج التجريبي المعاصر على الاستقراء، ومن أهم معالمه تحري دلالات الكلمات، فالمعلم الأساسي في المنهج، هو استبعاد المنطق اليوناني (منطق أرسطو). وقد أسلفنا الكلام عن منهج القرآن وهو الاستقراء في الباب الأول وعن تحري الدلالات في الباب الثاني (رسالة الشافعي) أما استبعاد منطق أرسطو فنتطلبه من صميم النظرية الإسلامية وهو منهج السلف.

فأولا: لم تخالط منهج الأصول الإسلامي أثارة من فلسفة غير إسلامية أو من منطق غير منطقه، وإن درس الغزالي والآمدي الفلسفة اليونانية (فلسفة أرسطو) فالأول مات في القرن السادس (٥٠٥) والثاني في القرن السابع (٦٣١) والمنهج الأصولي قد بلغ كماله في القرون الخمسة الأولى، وعمل به جميع العلماء بما فيهم الغزالي والآمدي.

وتعاظم هجوم الفقهاء من كل مذهب على منطق اليونان وفلسفتهم، بمجرد أن ذاعت ترجمته فهاجمه في أوائل القرن السادس أبو الوفاء بن عقيل (٥١٣) وهو حنبلي. والمازري (٥٣٦) من مازر بصقلية وهو مالكي. ثم أبو إسحق المرغيناني (٥٩٣) وهو حنفي. وهاجمه في القرن السابع النووي (٦٣٣) وابن الصلاح (٦٤٣) وهما شافعيان.

وأصبح من المقولات الذائعة: "من تمنطق فقد تزندق" كما ذاعت كلمة ابن الصلاح: "المنطق مدخل الفلسفة مدخل الشرشر".

والحق في قول ابن الصلاح: "لقد تمت الشريعة وعلومها، وخاض في بحر الحقائق والدقائق علماؤها، حيث لا منطق ولا فلسفة ولا فلاسفة".

ومن سيطرة العلم الإسلامي في الأصول الفقهية والابتعاد عن الكتب اليونانية المترجمة إلى العربية، والتي تكلم فيها من سموا (فلاسفة)، عاملت الجماعة الإسلامية الفارابي وابن سينا وابن رشد، كأنهم جزر منعزلة. ولم يدخر الغزالي جهدا في نقد الأولين وألف في ذلك كتابه: (تهافت الفلاسفة) بعد إذ درس فلسفة اليونان وألف فيها كتابه: (مقاصد الفلاسفة).

ولما سئل بعض القضاة من معاصري ابن سينا عن فلاسفة الإسلام أجاب: (ليس في الإسلام فلاسفة).

وفي أواخر القرن السادس للهجرة، أصابت المحن ابن رشد لاشتغاله بفلسفة أرسطو. والذين اطلعوا على الفلسفة الأجنبية من يونانية أو هندية أو فارسية، لم يحيدوا عن الجادة. هذا وترتيب القضايا المنطقية على منهج أرسطو أو على غير منهجه، لا يغير منهج العالم الإسلامي ولا طرائقه. وحسبك الغزالي والآمدي شهودا.

والغزالي صاحب إحياء علوم الدين وتهافت الفلاسفة، ينقد اليونانيين ومن أخذ إخدهم أو من حاول مزج فلسفتهم بالفكر الذي ينهجه المسلمون.

والآمدي – وقد تلقى الفلسفة اليونانية في دير للنصارى – كان شيخا في الأصول لشيخ الإسلام العز بن عبد السلام صاحب (قواعد الأحكام في مصالح الأنام). وابن تيمية إمام السلفيين يقول في الآمدي: "لم يكن في وقته من هو أكثر تبحرا في العلوم الفلسفية منه، وكان أحسنهم إسلاما وأمثلهم اعتقادا".

والآمدي أصولي كبير وضع كتاب: (الإحكام في أصول الأحكام) كما وضع (منتهى السول في علم الأصول). و(غاية المرام في علم الكلام)، ملخصا فيه (أبكار الإكار)، وعليه يعتمد العضد الأيجي في كتاب (المواقف).

والآمدي هو القائل عن إعجاز القرآن ودلالاته على الإيمان: (اعلم أن القرآن من أظهر المعجزات.. ولما اشتمل عليه من:.. وجمع الكثير من المعاني السديدة في الألفاظ الوجيزة الرشيقة وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: "أوتيت جوامع الكلم واختصرت لي الحكمة اختصارا".. كما أنه القائل: "من كان أشد تدربا بأوزان العرب ومذاهبها في اللغات وأساليبها في العبارات كان أشد معرفة بإعجاز القرآن وأسبق إلى التصديق والإيمان".

وثانيا: يقول السيوطي (٩١١) في كتابه (صون المنطق) ما قاله ابن خلدون من قبله: (إن المسلمين لم يأخذوا بالأقيسة (اليونانية المنقولة عن أرسطو) (٣٣٠ ق. م) لملابستها للعلوم الفلسفية المبينة للعقائد (غير الإسلامية)..).

وذلك أن المسلمين كانوا يدافعون ويجادلون أصحاب العقائد غير الإسلامية والناقلين عن فلاسفتها، ممن عولوا على المنطق اليوناني المبني على الفروض لا على المدركات الحسية (الاستقرائية)، فبالمدركات الحسية يثبت وجود واجب الوجود ووحدانيته وقدرته وقضاؤه وقدره سبحانه وتعالى، ومسئولية الإنسان عن كسبه كما هو منهج القرآن الذي يعمل به أهل الإسلام.

وثالثا: ابن تيمية، إمام السلفيين ابتداء من القرن الرابع عشر الميلادي، يصرح أنه لا يقبل إلا منهج القرآن والسنة ومنطقه واستنباطه، ويستبعد المنطق اليوناني لخلل في أساسه، إذ هو قائم على منطق أرسطو الذي يعتبر "الحد" في تعريف الشئ هو الذي يبين "الكنه" أي "الماهية" أو "الحقيقة الباطنة" فيه وهو "الطبيعة" الموجودة في كل ما يندرج تحت "نوعه" فالمعرفة عنده تستمد من المبادئ الكلية لوحدة ماهياتها في أفراد النوع أو الجنس، واستقراء الجزئيات لا يعطي علما يقينيا إلا بعد الإلمام بها جميعها. وهذا عسر ومعجز أو مستحيل. بيد أن المنطق الإسلامي "واقعي" ميسور. والحد فيه هو "المعنى" الذي يستحق الشئ من أجله "وصفه".

وفي حين "يحصر" المنطق الأرسطي اليوناني "ذاتيات" الشئ ليصل إلى كنهه" يهدف المنطق الإسلامي إلى مجرد "تمييز" الشئ من غيره، بما يتبين من "صفاته" لدى من يستعمله على الوجه الذي "يخص" الشئ حتى لا يدخل فيه ما لا يخصه. فالحد عند المسلمين مقصود به "التمييز بين المحدود وغيره، كالاسم، وليس المقصود به تصوير المحدود وتعريف حقيقته.

يقول ابن تيمية: (أما جماهير أهل النظر والكلام من المسلمين وغيرهم، فعلى خلاف هذا لم يقبلوا فكرة التوصل إلى "الماهية" وإنما أدخل هذا الكلام إلى أصول الدين والفقه بعد الغزالي من أواخر القرن الخامس وأوائل السادس. وهم الذين تكلموا في "الحدود" بطريقة أهل المنطق اليوناني تحت تأثير دعوة الغزالي إلى استخدام المنطق وأما سائر النظار من جميع الطوائف الأشعرية والكرامية والشيعة وغيرهم، فعندهم: "إنما يفيد الحد التمييز بين المحدود وغيره".

ويقول: إن ذلك مشهور في كتب أبي الحسن الأشعري والقاضي أبي بكر (٤٨٦) وأبي إسحق وابن فورك (٤٠٦) والقاضي أبي يعلى وابن عقيل (٥١٣) والنسفي وأبي علي (٣٠٣) وأبي هاشم الجبائي (٣٢١) وعبد الجبار (٤١٥) والطوسي ومحمد بن الهيصم وغيرهم الخ.. ما

ورد في كتاب ابن تيمية[٥٥] في (الرد على المنطقيين) أو (نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان). وقد اختصر السيوطي الكتاب الأخير في كتابه (جهد القريحة في تجريد النصيحة).

هكذا يظهر أن المنطق الإسلامي تجريبي عملي يستخرج الخصائص أو الصفات ويحتكم إليها، واليوناني فرضي نظري. وتظهر مزايا المنطق الإسلامي في العمل الدائم المنتج في أصول الفقه حيث يكتفي "بصفات الشئ" أو خصائصه لتعريفه وتمييزه. دون التزام بالبحث عن حقائقه الباطنة فيه. أما المنطق اليوناني فيبدأ بالعمومات ليصل إلى الجزئيات، ويكرر النتائج في المقدمات وبه تجمد فكر اليونان وأوقف المنهج الكنسي التقدم العلمي.

والمثل على ذلك قائم في جمود تعاليم الكنيسة في القرون الوسطى باستعمالها القياس الأرسطي والمنطق اللفظي للسيطرة على العقول بجدل لفظي يبدأ بتقرير عمومات ثم يقيس عليها المشاهدات، فإن وافقها صحت وإلا لم تصح. وعلى هذا لم يصح لدى الكنيسة نظريات دوران أجرام السماء، أو أن الشمس مركز الكون، أو أن الأرض كرة أو أنها تدور، لمخالفة ذلك للمبادئ الكلية لدى الكنيسة.

ومن أجل ذلك طال تعطل العقل وامتناع العلم وتتابعت ثورة المفكرين على الكنيسة لإطلاق الفكر من قيود التعميم، وللحكم على الأشياء من واقعها حكما موضوعيا تؤيده التجربة والملاحظة ويقبل التطور ولا يستعصى على التصحيح. وكان الحبر الإنجليزي الجدير بالإعجاب روجير بيكون من الطلائع التي تبشر بهذا الاتجاه من القرن الثالث عشر وله في تجارب المسلمين أسوة.

---

(٥٥) يقول: (فليست العلوم النبوية مقصورة على مجرد الخبر كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام، ويجعلون ما يعلم بالعقل قسيما للعلوم النبوية وهذا خطأ إن العلم هو على محمد ﷺ وعلم في ميراث محمد ﷺ. لقد بين ﷺ مختتما دورة الرسالة العظمى العلوم العقلية التي يتم بها دين الناس وضرب الأمثال وكانت الفطرة بما يثبتها عليه. ولذلك أتى الخبر من السماء – القرآن والحديث – بهذا يبين الحقائق لا بطريقة خبرية فقط بل (بالمقاييس العقلية) فيبين طريقة التسوية بين المتماثلين والتفرقة بين المختلفين) ويضرب الأمثال للتسوية والتفرقة ويقول: (وكذلك أنزل الله الميزان في القلوب.. فأنزل على القلوب من العلم ما تزن به الأمور حتى تعرف التماثل والاختلاف وتضع من الآلات الحسية ما يحتاج له في ذلك كما وضعت موازين النقد وغير ذلك. قال الله تعالى: (والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا في الميزان) فالميزان هو العدل وما يعرف به العدل وهو القياس القرآني المنزل ليتعرف به صحيح الفكر من باطله بالإضافة إلى أن نزن الأمور عامة حسية أو عقلية).

وفي أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر، كان جاليليو يقول: "الطبيعة مكتوبة بلغة رياضية" ومن معانيه أنها، من تكوينها، لا تتشكل أو لا تفهم إلا بالدقة الرقمية أو الهندسية، لا بالفروض المنطقية التي تضعها عقول الناس، وتجاري كبلر مع جاليليو في الدراسة الرياضية للطبيعة. وفي عصرهما – الذي يحمل اسمها بجدارة – دعا فرنسيس بيكون إلى نبذ فلسفة أرسطو والاعتماد على التجارب لتفسير الطبيعة والسيطرة عليها، وأصدر في ذلك كتابين وضح في الثاني منهما ما سماه "المنهج الجديد".

obeikandl.com

فرنسيي بيكون أو المنهج الجديد Novum Organum

خمدت نيران الحروب الصليبية، وتراءى فوق رمادها وميض الحماسة ابتغاء صحو شامل فيما سمي عصر الإحياء وكانت مدارس الترجمة للعلوم العربية قد أوفت على الغاية في ذلك العهد. كما كان الطليان أسبق الشعوب الأوربية وأعلاها صيحة في ابتغاء الإحياء أيامئذ. فلم تتوقف صيحات بترارك عند الثورة على ابن رشد أو على العرب أو الإسلام أو اللغة العربية كما سلف البيان، بل تعدت ذلك إلى "منطق أرسطو" يريد تقريبه إلى قواعد الخطاب. وأعقبه مواطنه بورنتوفلا (١٤١٥- ١٤٦٥) وتعالت أصوات المصلحين الدينيين.

يقول المؤرخ جبون: "جاءت أسماء لوثر ١٥٤٦" وزونجلي (١٥٣١) وكالفن (١٥٦٢) فرددها الناس شاكرين لأصحابها باعتبارهم منقذين للشعوب" وانقسمت الكنائس، ودبرت ملكة فرنسا مذبحة للهوجونوت هي مذبحة سان برتلمي سنة ١٥٧٢ لمقاومة الخروج على الكثلكة. وأحدثت الإرهاصات آثارها بتأسيس المذهب البروتستنتي وما أعقبه من صراعات الدول وخلافات الملل والنحل هجرات المؤسسين الأول إلى "الدنيا" الجديدة بحثا عن حياة جديدة وبدأت بذلك رحلة السفينة زهرة الربيع (١٦٢٠) إليها وهو العام الذي ظهر فيه كتاب (المنهج الجديد Novum Organum).

وكان كشف العالم الجديد في نهاية القرن الخامس عشر مثيرا للحماسة للكشف عن النصف الثاني من وجه الأرض، وللثورة الملاحية لاستعمار ما ينكشف من المجهول فيها، بل للكشف عن عالم السماء! حتى كشف كوبرنيق ثم نشر كشفه قبل موته بشهور سنة ١٥٤٢، عن دوران الكواكب حول نفسها وحول الشمس،وأعقبه جاليليو (١٥٦٤- ١٦٤٢) بتجاربه في بيزاو بادوا سنة ١٥٩٢ ورأى الناس أجرام السماء بأعينهم في منظاره سنة ١٦٠٩. فكان ذلك كله ثورة في المعرفة. وعاصره كبلر (١٥٧٨١- ١٦٥٠) بوضع قوانينه الفلكية الشهيرة التي أيدت كشوف كوبرنيق وإن حرمتها الكنيسة سنة ١٦١٦ وزاد عليها أن الشمس تدور.

وتأخير الإنجليز عن ركب الناظرين إلى السماء أو الثائرين على منطق أرسطو، وكانوا يرون ويسمعون عن روايات شكسبير (١٥٦٤- ١٦١٦) ثم ظهر في سنة ١٦٠٥ كتاب منشور عن (تقدم العلوم The Advancement of learning لفرنسيس بيكون (١٥٦١- ١٦٢٦) ثم ظهر سنة ١٦٢٠ كتاب له باللغة اللاتينية يلخص ويحدد طريقة منهجية لتحقيق ما ورد في الكتاب الأول، هو كتاب "المنهج الجديد Novum Organum " والكتابان ينددان بمنطق أرسطو ويدعوان للتجربة وتطبيق الاستقراء، أي لملاحظة الطبيعة بالكشوف التجريبية لا بالمنطق العقلي على طريقة أرسطو. والكتابان جزءان من موسوعة من ستة أجزاء كان يعتزم بها تجديد العلوم كافة تحمل اسم (الإحياء الكبير) Magna lnstauratio ولم يصدر منها غير هذين الجزءين.

وتواتر علماء الطبيعيات والرياضيات على آثار السابقين يتنادون بالبحث في الأرض والسماء وفي علل الأشياء، بالتجريب الفعلي لا بالمنطق العقلي، أي بملاحظة الطبيعة واستقراء المشاهدات ودراسة الخصائص في الكليات والجزئيات دراسة واقعية أو رياضية، حسابية أو هندسية أو فلكية، مع تحليل العناصر وتفسير الظواهر لبلوغ حقيقة الواقع.

وكتابا بيكون يستثيران الهمم للسيطرة على الطبيعة وتفسيرها بالملاحظة الدقيقة ومحاولة كشف الروابط بين العناصر، بمبادئ بسيطة مفهومة، مع استعمال لغة علمية تجئ بالمصطلح محدد المعنى لا ترادف فيه ولا إيماء، مما يؤدي إلى الخلط أو اللبس، ليدرك الفهم الإنساني المعارف الصحيحة عن الطبيعة ويتوجه بكشوفه فيها إلى كشوف جديدة.

* * *

قدم الطبعة التي بين أيدينا د. جيمس جريجتون Greighton أستاذ المنطق وعلم ما وراء الطبيعة بكلية كورنل بأمريكا في مجموعة تشمل كتابي (تقدم العلوم) و(المنهج الجديد) في مجلد واحد طبع سنة ١٩٠٠[٥٦]. فالكتاب الأول كالأساس للثاني[٥٧] وفيه إشارة إلى "المنهج الجديد"

---

(٥٦) مكتبة جامعة القاهرة ١٦٤٠٣/ ١٨ طبعة سنة ١٩٠٠ By the colonial press.

(٥٧) وهذا الكتاب الأول من تسعة أبواب الأول منها خاص بالدفاع عن المعرفة والتنبيه على ما يصيب الذهن من تشويش عندما يدرس "الكلمات" لا "الأشياء" والباب الثاني يتضمن تصنيفا للعلوم والباب الثالث يستمر في التصنيف ويعرض لأرسطو فلا يترك العثمانيين أو العرب دون تنديد. وفي ص٩٤ يشير إشارة عابرة إلى افتراضات كوبرنيق وبطليموس، ويتكلم عن الحاجة إلى "اتخاذ إجراءات جديدة للكشف الصحيح عن الحقيقة".

في الفصل الثاني من الباب الخامس بين أبوابه التسعة الموجهة إلى (الملك المعظم) الذي ولي العرش عقب الملكة اليزابث.

وكتاب (تقدم العلوم) يحوي تصنيفا للعلوم وحثا على الخوض في بحارها وإجراء التجارب مع ترديده أفكارا للأقدمين من اليونان والرومان والمصريين الأقدمين والعبرانيين وشذرات حكم وأمثال.

ويتحدث عن الرياضيات الخالصة والمخلوطة بالمبادئ. والباب الرابع يتكلم عن الفلسفة الإنسانية والمدنية ويعنى أشياء على الأطباء ويستحسن أشياء ويتكلم عن التشريح، ويسخر من رسالة قصيرة لأرسطو في الطب، ويتكلم عن الضوء بتفصيل والباب الخامس خاص بالمنطق والأخلاق. يقول عن الأول: إنه أداة العقل وإن الأخيرة أداة الإرادة ويتكلم عن أصنام الفكر (ص١٥٦- ١٥٩) التي سيرد ذكرها.

والباب السادس يتكلم عن اللغة والكلمات وعلاقة الكلمات بالأشياء. والباب السابع يتكلم عن الأخلاق وفي الباب الثامن والتاسع يتكلم عن المعرفة والسياسة والإدارة والقضاء والقانون والدين.

وتبدأ أبواب الكتاب كلها بالملك، فالكتاب موجه إلى أعظم الملوك العظماء!! Most Ex cellent king وتتابع الأبواب مستفتحة بالملك المعظم Excellentm king ويستمر المؤلف بما لا نظير له في الإطراء فيقدم "قرابين الإعجاب غير الملحدود بمواهبه اللدنية" ويعلن الكاتب أنه يحمل ذلك في ذهنه "كما هي عادته وكما هو واجبه" دون نظر إلى فضائل الملك الأخرى وتوفيقاته... الخ و"إن عمق واتساع كفايات عقلكم وإدراك ذاكرتكم وسرعة فهمهكم ونفاذ بصيرتكم وصفاء طريقة تعبيركم كما يقول أفلاطون.. ليس مثلكم أحد.. نفسكم ترسل الشعاع... وهبكم الله عقلا قادرا... الخ).

ولا مراء في أنهذا الإغراق في الإطراء كان من جراء ما ذكر، مقدم الكتابين د. جرجتون إذ كان بين الملك جيمس ستيوارت الأول وبين المؤلف جفوة عندما ولي العرش سنة ١٦٠٣ لمشاركة بيكون فيالعمل على إعدام كونت إسكس الذي كان مدافعا عن حق (بيت ستوارت) في الملك وكان هذا الملك أول الملوك من بيت ستيوارت.

وجيمس ستيوارت الأول وابنه أسوأ الملوك سيرة في تاريخ انجلترا، فقد زعما أن حقهما في الملك حق إلهي. وحل جيمس البرلمان وسجن بعض أعضائه وأعدم مستشار الملكة السابقة (ولتر رالي) وورث ابنه (شارل الأول) فساد فسيرته في الأمة والبرلمان حتى نشأت حرب أهلية انتهت بإعدامه.

أما الكتاب الثاني Novum Organum (المنهج الجديد) فقد ظهر سنة ١٦٢٠ باللغة اللاتينية، مرددا الدعوة لارتياد الطبيعة على الوجه الذي سبق، مع تحديد منهج لذلك.

يقول عنه مقدم الكتابين:

"إن عصر الملكة اليزابث كان استمرارا وتطويرا للروح الجديد الذي برز في عصر الإحياء حوالي منتصف القرن الخامس عشر Renaissance ابتغاء تغيير القيم التي سادت العصور الوسطى على مدى ألف عام، وضع المعرفة في محل العقيدة، واستعمال مواهب الإنسان بدلا من الزهد، وتحقيق الإنجازت بدلا من الصلوات – وكانت الصحوة في إنجلترا بمثابة يقظة ضمير عام تتغيا الحرية السياسية والوحدة الوطنية وشاعرها شكسبير. أما فرنسيس بيكون فكان يدعو إلى أن تكون الطبيعة ملك الإنسان وعليه إخضاعها وتوجيهها بإرادته".

"وكان يشعر أن الإنسانية ضلت طريقها قرونا طويلة في متاهات الألفاظ الجوفاء وعبث التصورات والقيادة الزائفة لأرسطو وتلاميذه، في العصور الوسطى".

ولخص جريجتون حياة بيكون فقال: "ولد فرنسيس بيكون سنة ١٥٦١ ودخل جامعة كمبردج سنة ١٥٧٣ في الثانية عشرة ليبقى فيها عامين يصحب بعدهما سفير انجلترا إلى باريس ملحقا بالسفارة وعاش في باريس وبلوا وتورو وبواتييه فلما مات أبوه، وكان زوج خالته لورد بيرلي أكبر الساسة في عصره، رجع إلى لندن ودرس القانون واشتغل بالمحاماة ودخل مجلس النواب سنة ١٥٨٤. وكان فقيرا ساعده كونت إسكس. وفي سنة ١٥٩٥ عين مستشارا للملكة اليزابث فشارك في تحقيق تهمة الخيانة التي قطع فيها رأس اسكس.

وفي عصر الملك جيمس الأول عين سنة ١٦٠٧ محاميا عاما. وفي سنة ١٦١٧ نائبا عاما. وفي سنة ١٦١٩ رئيسا للمحكمة العليا. ومنح لقب بارون فرولام، لكن سقوطه لاح في الأفق فاتهم بالرشوة واعترف بها. وكان دفاعه أنه قبل الرشى لكنه لم يمل في الأحكام. وحكم عليه بالغرامة ٤٠ ألف جنيه والعزل والحبس وحرمانه من الوظائف العامة فكان يقول عننفسه وعن الحكم: "إنه أعدل قاض في انجلترا منذ خمسين عاما لكن حكم البرلمان كان أعدل رقابة منذ مائتي عام"[٥٨].

---

(٥٨) نشأ فرنسيس بيكون في أسرة جد متعلمة ومتدينة مرتبطة بالملك هنري الثامن وبنته الملكة اليزبيث الأولى ودرس أبوه نيقولاس بيكون (١٥٦٩) القانون في كمبردج ثم في باريس، وكان ذا حظوة لدى الملك هنري

وقال جريجتون عن كتابيه (في سنة ١٦٠٥ كتب كتابه (تقدم العلوم) صنف فيه العلوم الموجودة والتي يجب أن توجد لتملأ فراغ المعرفة، قائلا: إنه يدق الأجراس لتتداعى القرائح وتزيل العوائق من طريق التفكير الصحيح وبوجه خاص ليقوض مزاعم الفلسفة الأرسطية. وهي مصدر الشر الكبير... لذلك أصدر كتابه الثاني سنة ١٦٢٠ وأسماه (الأورجانون الجديد Novum

---

الثامن فشاركه في ترسيخ دعائم المذهب البروتستنتي في انجلترا، حين خرج الملك من جراء طلاقه وزواجه على الكاثوليكية، وأقطعه الملك أملاك دير (أدمند زبري) ولما وليت الحكم اليزبث الأولى بنت هنري الثامن سنة ١٥٥٨ عينته حامل أختامها وعضوا في مجلسها الخاص. زرته مرة في بيته فقالت له: "هذا بيت صغير بالنسبة لك" قال: "إنك يا صاحبة الجلالة قد جعلتني أكبر منه". له رسائل في السياسة والتشريع وتعليق على سير (الأنبياء الصغار) ولم يطبع له شئ منها. أما زوجته آن فكانت تجيد اللاتينية والإيطالية متمسكة بدينها. ترجمت من الإيطالية ٢٥ موعظة دينية. طبعت ونشرت سنة ١٥٥٠ وترجمت من اللاتينية دفاع القس جيول عن الكنيسة الإنجليكانية فطبع سنة ١٥٦٤ في هذه البيئة الدينية والعمل للملكة اليزبيث التي بذلت قصاراها لتثبيت الديانة البروتستنتية التي أدخلها أبوها هنري الثامن، ولد فرنسيس بيكون سنة ١٥٦١. ورعته الملكة اليزبث فكانت تدعوه في حداثته حامل أختامها الصغير. ودخل كمبردج في الثانية عشرة. وكتب في ذلك العهد ضد فلسفة أرسطو. مما يقطع بأنه تعلم ذلك في صغره وفي مدرسته.

ثم أرسل في صحبة سفير انجلترا إلى فرنسا وهو في السادسة عشر. وألف كتابا وهو في التاسعة عشر – بعنوان (عن دولة أوروبا Del'Etat de l'Europe) وأتم دراسة القانون وعينته الملكة في الثامنة والعشرين من عمره مستشارا فوق العادة بمرتب ضئيل. فمضى زمانا يسعى لنيل وظيفة أعلى وساعده في ذلك كونت إسكس.

وباءت مساعيهما بالفشل فمنحه الكونت ضيعة يعيش منها. ولكن الكونت اتهم بالخيانة فيما بعد فأجري التحقيق معه وترافع ضده فرنسيس بيكون!! دون أن يلزمه بذلك أحد! وطلب إعدامه فأعدم لتهمة الخيانة.

واحتقر الناس بيكون فنشر كتابا يبرر فيه عمله فلامته الملكة. ولم يظفر ليها بطائل مقابل تلك الفعلة. وكان Essex أقرب المقربين إلى قلبها قبل اتهامه. ولما ماتت الملكة سنة ١٦٠٣ انقطع دابر بيت تيدور. وحل محلها الملك الغشوم جيمس الأول من أسرة ستيوارت وكان اليزبث قد أعدمت أمه ماري ستيوارت (ملكة اسكتلندة) سنة ١٥٨٧ بتهمة الخيانة وكان Essex يدافع عن حق بيت ستيوارت في ولاية العرش. لذلك لم يرض الملك الجديد عن بيكون إلا بعد سنوات أربع فعينه محاميا عاما سنة ١٦٠٧.

ومن ثم يفهم تقربه المتناهي في الإطراء للملك في كتابه (تقدم العلوم) سنة ١٩٠٥ كما يفهم تأليفه كتابا عن هنري الثامن، (لا يلفت النظر، لا بإخلاصه في السرد، ولا بأسلوبه غير الطبيعي في غالب أمره، والخالي من الوقار والذوق) على ما عبرت موسوعة التراجم العالمية الفرنسية (ميشو) تحت اسم بكيون.

كذلك يفهم عدم تنفيذ الملك حكم مجلس اللوردات بسجن بيكون بعد عزله من وظيفة قاضي القضاة للرشاوى التي ارتشاها، وتقرير الملك معاشا له مع حرمان مجلس اللوردات له من أي معاش.

organum في مقابل ما سماه تلاميذ أرسطو "الأروجانون" Oryaror (باليونانية) اسما لمنطق أرسطو. وحاصل الكتاب أن عمل الإنسان هو تفسير الطبيعة. ولذلك وجب عليه أن يتحول من دراسة الألفاظ إلى دراسة الأشياء ليتوصل إلى معرفة قوانين الطبيعة. وبدلا من أن يستخلص حقائقها بالاستنتاج المنطقي، يتعين عليه أن "يستقرئ" "ويجب" ويحكم بعقله على الأشياء وسلوكها. وأن يكون بمثابة طفل للطبيعة، يتخلص من كل سيطرة سالفة أو انحياز أو تعصب يضيع الحقيقة. وفي بيان هذه المعوقات وضع نظريته المشهورة عن "الأصنام الأربعة" وتطرق إلى بيان وتحليل طرق البحث الاستنباطي بما لم يصنعه أحد من قبل).

ثم يقول: "ومن الخطأ طبعا الزعم بأن بيكون اخترع طريقة الاستنباط فلقد طالما استنبط الناس القوانين من الأحوال أو الأمثال أو المشاهدات لكن الإقرار بذلك لا يقلل قيمة (المنهج الجديد) كما زعم (ماكولي) في كتابته عنه، فإن الذي حاوله بيكون هو تحليل إجراءات الاستقراء وبيان شروطها للوصول إلى الحقيقة عن طريقها..".

ثم يقول: "لكن الأكثر أهمية من نظرياته المنطقية هو ما أحدثه من تأثير في العقل البشري بمثل أعلى جديد للثقافة وتنبيهه على الأهمية العملية لتوسيع مدى المعرفة الطبيعية فذلك أهم من طرقه المنطقية وقد أشار إلى هذه المعاني تشرش في مجموعته عن الأدباء الإنجليز"[٥٩].

---

(٥٩) نقل جرجتون عن تشرش قوله (من المتفق عليه أن بيكون بداية الإصلاح المنهجي للفلسفة الطبيعية والمحاولة الذكية التي توجت بالنجاح لوضع الأسس الراسخة لفحص الطبيعة. وكان أمرا ذا بال حقا أن نفهم على النحو الذي فهمه النظرة الواسعة الشاملة – لما يجب أن تكون عليه المعرفة الطبيعية حتى لو لم يكن قادرا على تحقيق فكرته وكان على خطأ في وسائله العملية للإصلاح.

Even if he were not able to realize his idea and wer mistaken in his practical methods of reform

لكن الأفكار والمبادئ الكبيرة تحتاج إلى التفسير الملائم لتحدث تأثيرها في الناس.. إن إظهار وتفسير الثورة الفكرية التي كانت تلوح في الأفق، والتي حدثت فعلا في الظلم يوما بعد يوم، وضعت على عاتق هذا العبقري الذي لا يسبقه إلا شكسبير... إن الحسابات الفلكية والتحقيقات الطبيعية والكيميائية كانت بوجه ما، مجرد أقوال غرية أو محتملة الفائدة إذ تستخدم، لكن الذي جمعها في وحدة علمية وأضفى عليها معاني أبعد من حدودها فرفعها إلى مستوى أعلى من الاحترام الحقيقي بين المجهودات الإنسانية التي فرضت على كل المفكرين أن يروا الاحتمالات الجديدة التي لا شك فيها للمعرفة وللظروف التي أتيحت لهم لم تكن محاولات بيكون نفسه في العلم، ولا جمعه للمشاهدات ولا قواعد طريقته... وإنما الفكرة العظيمة عن الحقيقة وقيمة المعرفة التي ليس لها حدود، قد أظهرتها بديهة بيكون الثاقبة الواثقة التي ملكت عليه طبيعته).

وسنعرض فيما لعبد لدراستين عربيتين كاملتين لكتاب (المنهج الجديد) عقب الإدلاء ببيان عن الجزأين اللذين يتألف منهما، نخص فيه ببعض التفصيل ما أسماه الدكتور جريجتون نظرية الأصنام المشهورة.

فأول الجزأين عنوانه (في تفسير الطبيعة ومملكة الإنسان)

On the Interpretation of Nature and the Empire of Man

والثاني عنوانه (في تفسير الطبيعة أو حكم الإنسان)

On the Interpretation of Nature on the Reign of Man

والكتاب من فاتحته يعتبر الإنسان مديرا ومفسرا للطبيعة يفهمها قدر ما تحيط ملاحظاته بنظامها، فما أحوجه إلى وسائل جديدة وأدوات ونظم وخطط جديدة تساعده وتحميه. ويفيض في الافتراضات والاحتمالات لتوضيح المعوقات التي تعجز الإنسان عن كشوف جديدة ومبادئ جديدة تؤدي إلى كشوف جديدة أو مبادئ واختراعات جديدة. فالكشوف والاختراعات ملك الإنسانية جميعها ولذلك اعتبرها الأقدمون جديرة بالتقديس، في حين أن أعمال المصلحين أو المنقذين أو الأبطال ليست جديرة غلا بالتقدير. فهي بطولات محلية ومؤقتة، أما الاختراعات فخلق وتقليد للعمل الديني ونعمة للبشرية كافة. ولم يقرأ الإغريق كتاب الطبيعة فلا يمكن الاعتماد عليهم فيما لم يقرأوه. ولا فضل للقدماء لأنهم قدماء فإنما هم (أطفال الإنسانية) فلمن نستمع للأطفال أم للكبار؟

ومن ثمة يتعين علينا البحث في الطبيعة الكونية، وتنكب طريقة الأقدمين والعمل ليمسك الإنسان بالأسرار المتهربة للطبيعة في نسق متتابع من الملاحظة الإيجابية وامتحان المشاهدات من كل نوع واستعمال ما يعارضها في اختبار حقيقتها وردد بيكون ما سماه جريجتون نظريته الشهيرة في "الأصنام الأربعة" وإن كانت من "المعلومات العامة" لدى دارس العلوم الإسلامية في العلوم جميعا.

وبيكون يعرض نظرية الأصنام منذ سنة ١٦٠٥ باختصار شديد في كتابه (تقدم العلوم) Advancement of Leaming ص١٥٦ إلى ص١٥٩ في ختام الفصل الرابع من الباب الخامس ثم يعود إليها بتفصيل في كتاب المنهج الجديد سنة ١٦٢٠ فقرة ٣٨ وما بعدها.

أولاها أصنام القبيلة: وهي مركوزة في طبيعة الإنسان أو القبيلة التي ينتمي إليها أو الجنس الإنساني بتمامه. فالناس، بوهم زائف، يجعلون حواسهم ويفرضون خصائصهم مقياسا يقيسون به الأشياء.

وثانيتها أصنام الكهف: وهي الخاصة بكل فرد (بالإضافة إلى الأخطاء المتعلقة بالجنس البشري عموما) فلكل إنسان دخيلة نفسه أي "كهفها" الخاص الذي يتسرب تأثيره إلى النور الطبيعي فيفسده، إما من جراء الوضع الخاص للمرء، أو تعليمه، أو تعامله مع الآخرين، أو قراءاته، أو سلطان من يجلهم أو يعجب بهم، أو من الانطباعات المختلفة في العقل في مختلف حالاته، والنفس متغيرة بتغيرات أحوالها تبعا للصدفة، وتلتمس المعرفة في عوالم ضيقة لا في العالم الأكبر.

وثالثتها أصنام السوق: وهي نتائج التواصل ومشاركة الإنسان للإنسان ولذلك يسميها المؤلف أصنام "السوق" من تعامل الناس واجتماعهم معا. فالناس يتداولون بلغة التخاطب لكن كلماتهم تتكون بقصد التعميم، وينتج من وضع الكلمة في غير موضعها أو سوء تكوينها تعطيل عجيب للعقل لا منجاة منه بالتعريفات أو التوضيحات التي يلجأ إليها المتعلمون، فما تزال الألفاظ تؤثر على الفهم وتسبب التخليط في كل شئ وتقود الإنسان إلى نزاعات لا حصر لها وإلى أفكار غير صحيحة أو خادعة.

ورابعتها أصنام المسرح: وهي التي زحفت على العقل الإنساني من مسلمات تلقاها من طرق فلسفية خاصة أو قواعد منحرفة للبرهنة، والمؤلف ينعتها بأصنام المسرح لأن جميع طرائق الفلسفة حتى عصره ككثير من الروايات التي كتبت أو مثلت تنشئ عوالم خيالية أو مسرحية. ولا يقتصر هذا على الفلسفة، بل يتعداها إلى مبادئ علوم رسخت في النفوس بالتقاليد والاحترام الضمني والإهمال.

في أصنام القبيلة يستطرد المؤلف في خصوص الأصنام ببيان تظهر من استعراض بعضه طريقته التحليلية في الوصف بوجه عام، وهي التي أعلت شأن كتابه ومن أمثال ذلك قوله: (إن الفهم الإنساني يستسلم بسهولة لما يشهده أو يقال له إما بالقول أو بالارتياح إليه. والخرافات متشابهة سواء في العيافة أو الأحلام أو النذر أو العقوبات وما أشبه ذلك وما يتحقق منها بالصدفة قليل، وما لا يتحقق كثير. لكن آثار ما يتحقق تبقى أكثر من آثار ما لا يتحقق. والأقيسة تتسرب بخداعها في الفلسفة والعلوم حيث يحكم المبدأ المستقر جميع الظروف وإن كان غيره أحق بالتصديق.

والفهم الإنساني يتأثر بما يفجؤه فيستقر في العقل ويملأ الخيال ويتضخم فيخدعه في غالب الأمر، حتى يخال كل شئ شبيها بما استقر فيه.

والفهم الإنساني فعال لا يتوقف، ويسير قدما إلى حيث لا تحده حدود وبهذا يظهر ضروريا أن تتوقع أن ثمة شيئا وراء الحدود.

والفهم الإنساني لا يشبه الضوء الصافي، بل يخالطه مزيج من الرغبة والعاطفة تتألف منه طريقته. والإنسان يصدق دائما ما يفضله ويرفض الصعاب لانعدام صبره على البحث والتثبت، ويرفض الانضباط لأن الانضباط يضع حدودا لآماله ويرفض تعمق الطبيعة لإيمانه بالخرافة. ويرفض أضواء التجارب صلفا وكبرياء. ويقبل الغرائب مخافة آراء العامة، وباختصار تفسد عواطفه إدراكه في كثير من الحالات ومن دون أن يتوقع.

والفهم الإنساني ميال للتجريد، يتصور المتحرك ثابتا، في حين أن الأفضل تحليل الطبيعة، كما ذهب إليه بعض السابقين بالطريقة التحليلية التي تضعنا في صميم الطبيعة وتمكننا من قوانينها.

ويقول عن أصنام الكهف: إنها رابضة في العقل والجسم والتعليم والعادات والصدفة.

فبعض يرتبط بعلوم خاصة أو تأملات إما لأنهم يفترضون أنهم مؤلفوها أو مخترعوها، وإما لأنهم بذلوا فيها مجهودا ومثل هؤلاء إذا تصدوا للفلسفة أو ملاحظة الطبيعة يغذونها بأفكارهم السابقة "وأرسطو" مثل واضح لذلك، إذ أخضع فلسفته الطبيعية لمنطقه. وبهذا جعلها قليلة الفائدة ومحلا للنزاع.

وبعض يبدي إعجابا غير محدود بالأقدمين وآخرون يحتضنون الأفكار الجديدة والقليلون هم الذين يحتفظون بالوسط الخير. وليست الحقيقة هي التي تلتمس في هذا الموقع من الزمان أو ذلك، بل هي التي تظهر في ضوء الطبيعة في التجارب. وهذه هي الخالدة، وملاحظة الطبيعة وأشيائها في أفرادها يصعب فهمها. وإنا ملاحظتها في مجموع تركيبها يبهر الذهن ويريحه. وعلى من يتصدى لذلك أن يشك فيما يتوصل إليه وأن يحتفظ به سويا غير مخلوط.

وأصنام السوق أصعب الأصنام: فالناس بحسب أن فهمها يحكم الألفاظ لكن الألفاظ هي التي تحكم الأفهام. والألفاظ تتكون بتعبير شعبي دارج، والأشياء تعرف بخطوطها العريضة التي

تتراءى لعقول العامة. فإذا سلطنا عليها التفكير الدقيق أو الملاحظة المركزة للتمييز بين تلك الخطوط ومطابقتها على الطبيعة رفضت ذلك الألفاظ. ومن ثمة خلافات المتعلمين التي تقف عند الكلمات والسماء ولا تجدي التعريفات في إصلاح الأمور في المواضيع الطبيعية لأنها مؤلفة من كلمات تنتج غيرها من الكلمات. ولذلك يتعين الالتجاء إلى المشاهدات وتسلسلها العادي وتنظيمها.

وأصنام الكلام نوعان: فهي إما أسماء أشياء لا وجود لها، وإما أسماء أشياء لها وجود ولكنها مختلطة أو سيئة التعريف أو مستخرجة في عجلة وعلى غير نظام.

وأصنام المسرح: ليست من طبيعة الأشياء وهي لا تتسرب إلى الأفهام عن غير وعي بل هي تدخل عليها في وضوح وحماية من خيالات النظريات وقواعد البرهنة المحرفة. والناس تستخلص الكثير من أصول قليلة، أو تستخلص القليل من أصول كثيرة، وتعتمد فلسفتهم في الحالتين على أساس ضيق جدا من التجربة والتاريخ الطبيعي والفلسفة النظرية تصل إلى ظروف عامة متعددة بالتجربة دون التثبت أو الاختبار، وتعتمد في غالب أمرها على التأمل واستنباط الذكاء.

والتجريبيون يجرون تجارب صحيحة بدقة ولكنها قليلة. ويستنتجون منها. ويخترعون النظريات الفلسفية ويجرون حكمها على غير ما جربوه.

والنوع الثالث من الفلاسفة، عظيمو التقدير للدين فيدخلون اللاهوت والتقاليد في المجال الفلسفي. ومن غريب أمر بعضهم أن يذهبوا إلى حد استمداد العلوم من الأرواح والجان.

فهذه ثلاثة أنواع للفلسفة: السفسطائية والتجريبية والخرافية. و"أرسطو" يقدم لنا المثل الأكبر للنوع الأول حيث أفسد الفلسفة الطبيعية بالمنطق. فليست فلسفته إلا تعبيرات منطقية وأحكاما مسبقة أخضع لها تجاربه ورسائله ومسائله دون الالتجاء إلى التجارب كأساس لمبادئه، بل كان يقرر المبدأ ويصطحب التجربة كأسير محكوم عليه أن يوافق على ما سبق تقريره، فهو أحق باللوم من تلاميذه الذين خرجوا على طريقته.

والمدرسة التجريبية تصل إلى نتائج أشد انحرافا، فهم لا يبدءون كالسابقين في ضوء معلومات عامة وإن كانت ضئيلة أو خرافية، ولكنهم يحصرون أنفسهم في ظلام تجارب قليلة تفسد تصورهم، لأنهم يطبقونها كل يوم: والشاهد القوي بذلك، الكيميائيون ونظرياتهم.

ومن الصعب أن نجد شاهدا آخر في هذا العصر إلا أن تكون "فلسفة جلبرت" من جراء التسرع في الفهم والوثوب إلى العمومات بتقرير مبادئ للأشياء – فقرة ٦٤ –.

والفساد من جراء خلط الفلسفة بالخرافة أو باللاهوت أوسع مدى وأشد ضررا. وفساد التدليل مساعد أصيل للأصنام.. لقد مرت فلسفة أرسطو بعد أن دمرت الفلسفات الأخرى – كما دمر العثمانيون إخوتهم – بردود متنازع فيها. وحكمت على كل شئ وأرسطو يثير المسألة ويضع لها الرد ليكون كل شئ مؤكدا ومحكوما (الفقرة ٦٧ من الجزء الأول).

* * *

وقد سبق للمؤلف قول ذلك بالنص في كتاب تقدم العلوم ص٩٣: "إن أرسطو، متمثلا بالطريقة العثمانية تصور أنه لا يستطيع أن يحكم بأمان إلا إذا قتل كل إخوته" وكرر التنديد بالعثمانيين في كتاب تقدم العلوم ص٢٤٥ فقال عنهم من غير مناسبة: "الأمة القاسية المتعطشة للدماء". ولم يترك العرب حيث قال في "المنهج الجديد":

"ولقد جاءت العلوم التي بين أيدينا من الإغريق أساسا فالإضافات التي أضافها الرومان والعرب أو الكتاب المحدثون قليلة الأهمية والمقدار" (فقرة ٧١) وفي الفقرة ٧٨ يذكر أسباب الأخطاء والإصرار عليها طوال العصور فيقول: "ففي غضون خمسة وعشرين قرنا لا تكاد تميز إلا قرونا ستة خصبة بالعلم مواتية للتقدم. ذلك أن في العصور صحراوات وفراغات ما في الأرض. فلا تستطيع إلا إحصاء ثورات أو حقب ثلاث للفلسفة:

١– اليونان.

٢– الرومان.

٣– عصرنا أعني عصر فلسفة أمم غرب أوربة. ولكل منها قرنان على التقريب وكانت تعاسة العصور المتداخلة في هذه الحقب ظاهرة في ضآلة المقدار والثراء العلمي. ولا حاجة بنا لذكر العرب أو الفلسفة المدرسية التي فتتت العلوم في تلك العصور بدراساتهم المتعددة أكثر مما زادت في وزنها".

* * *

ويتكلم المؤلف عن التجريب وطريقته في الجزء الثاني من (المنهج الجديد) Novum Organum فيصبح إجراء التجارب واستقراء الشواهد والبحث عن "العلة المؤثرة" مشغلته. وربما كان من المفيد أن نذكر في صدد تجاربه خلاصة لفكرة عنها في الفصل الثاني من الكتاب الخامس من (كتاب تقدم العلوم)، لما تدل عليه من منشأ تفكيره وأصول طريقته، حيث قسم الاختراع قسمين: اختراعا في الفنون. واختراعا في الحجج. والأول هو المطلوب والأهم. إذ يقوم على تجارب علمية موجهة إلى منهج جديد Novum Organum وتحدث عن التجارب العلمية فقال بين ما قال: "إن ما نحاوله هو أن يتساوى العقل – بمساعدة الفن – مع الأشياء. وأن نجد فنا للتوضيح والتوجيه لكشف الفنون الأخرى، مع مبادئها ونتائجها. وهذا الفن من قسمين: الأول غرضه الانتقال بتجربة إلى أخرى، والثاني غرضه الانتقال من التجارب إلى المبادئ، التي قد تؤدي إلى تجارب جديدة. أما الأول، فنسميه التجارب العلمية وأما الثاني فهو تفسير الطبيعة، المنهج الجديد Novum Organum أو أداة العقل الجديد" ويتابع الكتاب الكلام عن التجارب وتغييرها تنويعها وتقليبها وتفسيرها مع تشقيق الاحتمالات وشرح التوقعات والحث على المثابرة والاستمرار في الملاحظة.

والدراستان العربيتان اللتان أشرنا إليهما من قبل عن كتاب (المنهج الجديد) تزيدان أمره وضوحا في الدراسة الحالية، قام بالدراسة الأولى المرحوم الأستاذ عباس العقاد في كتاب خاص بـ"فرنسيس باكون" وقام بالثانية الدكتور جلال محمد موسى في رسالة الدكتوراه مقدمة لجامعة الاسكندرية في (منهج البحث العلمي عند العرب في مجال العلوم الطبيعية والكونية) وهو المجال الذي وضع بيكون من أجله كتابه.

* * *

١– أهمت الترجمة الشخصية لحياة[٦٠] بيكون الأستاذ العقاد، فتحدث عنها ثم انتقل إلى كليات (المنهج الجديد) فلخصها فيما يلي:

---

(٦٠) (ينطق الأستاذ العقاد الاسم (باكون) Bacon، لأن العرب لا يميلون بحرف أ نحو الياء مثلما ينطق الأوربيون الحرف A المعادل له في اللغات الأوربية بالألف اللينة، إذا تلا الحرف الذي بعده حرف علة، وإن

١- أن للمعرفة الإنسانية غرضا واحدا هو تمييز الطبيعة وتوجيه قوانينها إلى مصالح الجماعات والأفراد.

٢- أن القياس على طريقة أرسطو مبني على فروض، والفروض كلمات. والكلمات رموز وخواطر. فإذا التبست الخواطر اضطرب أساس البناء القائم عليها.

٣- أن أسلوب أرسطو يصوغ القواعد على حسب الأقيسة وهي أمور كلية. ثم يبحث عن مصداقها في ظواهر الطبيعة وأسلوب أستاذه أفلاطون يجعل العالم المحسوس تابعا للعالم المتخيل.

٤- (أ) اختبار الواقع هو أوجز طريق إلى العلم الصحيح.

(ب) إحصاء المشاهدات جميعا غير مستطاع أو لازم لتقرير النتائج.

٥- وجوب التخلص من تأثير (أوثان) idols العقائد الموروثة وهي أربعة أوثان القبيلة وأوثان الكهف وأوثان السوق وأوثان المسرح.

(أ) فأوثان القبيلة هي نزعات العقل الطبيعية التي تصور الأشياء على صورة سابقة لا برهان عليها من التجربة أو المشاهدة وهي تفسر ولع الإنسان بالعيافة والتطير وتصديق الخرافات الملفقة من صراع الحس والخيال.

(ب) وأوثان الكهف هي أفكار العصور التي تخلفها في نفس الفرد الوراثة أو النشأة أو الفطرة وهي تشمل خصائص الأمزجة كمزاج العالم ومزاج الفيلسوف ومزاج الفنان.. الخ.

كنا وغيرنا نكتبها حسب نطقها بالإنجليزية (بيكون). ومن هذه الترجمة نذكر بعض ما لم نورده من قبل: أن بيكون. بعد أن تولى اتهام صديقه كونت Essex بالخيانة العظمى حتى أعدم لم يكف عن التشهير بذكراه ونال حظه من ثروته وثروة من أعدموا معه. ثم رقي إلى وظيفة نائب عام ثم قاضي القضاة مكافأة له على خدماته للقصر الملكي في إبان مناقشة اختصاصات الملك في مجلس النواب. واتهم بالرشوة واعترف بثلاث وعشرين تهمة فيها رشى كان يرتشيها بوساطة مرءوسيه فعزل سنة ١٦٢١ ومات سنة ١٦٢٦.

وكان قد وضع خطة دينية (لجمع الدول المسيحية في حلف عام لمقاومة الأتراك العثمانيين وتجديد الحروب الصليبية).

وكان يزري بالكرادلة والأساقفة لاحترامهم للبابا في روما.

(ج) وأوثان السوق هي ما يلحق بالأفكار من معاني الكلمات التي تجري على ألسنة العامة، يتداولونها بغير تمحيص كما يصنعون إذ يجلسون في السوق فيتداولون الأفكار بألفاظ لم توضع للدرس والعناية بالحقيقة بل توضع للمساومة والتفاهم على سفساف الأمور.

(د) وأوثان المسرح هي ما يتسرب إلى العقول من قضايا الفلاسفة وأخطائهم في القياس والاستدلال. ومنها أسلوب أرسطو فإذا تخلص العقل من هذه الأوثان وقارب الطبيعة بالمضاهاة والمقابلة والتخصيص بعد التعميم كان على ثقة من إصابة الحقيقة. ومن تعويل بيكون على التجربة تعويلا كاملا استخف بما عداها. ومن مقولاته "يجب أن تتبع الكتب العلوم لا أن تتبع العلوم الكتب".

٦- أن الاختبار على نظام من النظم المطردة ضرورة للباحث عن حقائق العلوم من وراء المشاهدات. ولذلك وضع (باكون) نظاما للتجارب أساسه الحصر والغربلة بوضع جداول ثلاثة للتجربة، أولها يشتمل على وجوه المقارنة بين درجات الاختلاف لمعرفة الزيادة أو النقص في بعض العوارض والاتجاه إلى السبب الصحيح أي "العلة الحقيقية" فإذا تساوى سببان امتد البحث إلى ظاهرة أخرى لعلها ترفع اللبس ويسميها أسباب "المعالم" لأنها تقف على المفترق.

وأورد العقاد أقوال ناقدي "المنهج الجديد" ومن لهم فيه "شك" ثم قال:

"والذي لا شك فيه أن سلف باكون وسميه روجرز باكون "روجير بيكون" قد كان يقتدي بعلماء العرب ويصرح بذلك في مصنفاته ومحاضراته. وأن فرنسيس باكون قد استفاد من سلفه وسميه كما استفاد علماء الإنجليز جميعا بعد القرن الثاني عشر من ذلك القس الغيور على أمانة العلم والتفكير. وقد أشار باكون في كتابه "طوبى الجديدة" New ATLANTIS إلى العرب وذكر فيه بعض الأسماء العربية. ولكنا لم نجد في كتبه دليلا على استفادة مباشرة من مطالعة الكتب العربية المترجمة إلى اللغات الأوربية، وكل ما استفاده من هذه الكتب منقول عن المصادر الأخرى كما ينقل التابعون عن السابقين شاعرين بذلك أو غير شاعرين".

ويذكر الأستاذ العقاد بعد ذلك أن كتاب (طوبى الجديدة) عبارة عن رحلة خيالية إلى جزيرة سماها (بني سالم) حاكى بها القارة الضائعة التي ذكرها أفلاطون.

ولقد أسلفنا كلمات عن روجير بيكون واسمه بالإنجليزية روجرز Rogers. وارتباطه بالمنهج الإسلامي[٦١] وثيق. فتأكيد الأستاذ العقاد استفادة فرنسيس بيكون منه مقصود به الاستفادة من اقتدائه بعلماء العرب.

لكن المبادئ الستة التي لخص فيها العقاد مبادئ فرنسيس بيكون أصرح وأفصح في الاقتداء المباشر بالعرب بمثل ما تجد عين الشئ الخاص بك عند آخر. فخلاصات العقاد لبيكون هي أصول المنهج الإسلامي المغاير للمنطق اليوناني (منطق أرسطو) وللأسباب التي دعت العرب لرفضه[٦٢] سواء من ناحية الكنه والماهية أو من ناحية عدم الإحاطة بجميع الأشياء أو من ناحية مسلك أصول الفقه في التقسيم والسبر[٦٣] بما يترجمه العقاد (الحصر الغربلة) أو الاكتفاء (بالعلة المؤثرة) [٦٤] ويسميها بيكون السبب الصحيح أو العلة (الحقيقية)، أو في التعريف بالعلة دون التعريف بالكنه أو الماهية[٦٥] كما أن التعبير بالأوثان وترتيبها مماثل للتعبير الإسلامي عن أغاليط النظار التي ورد معناها مفصلا في القرآن[٦٦] ملخصا في خطبة رسالة الشافعي[٦٧] مرتبا على لسان الغزالي[٦٨] أو الاهتمام بدلالات الألفاظ[٦٩] والنصوص وبناء المعرفة على المشاهدة والتجريب أي الاستقراء[٧٠] والاكتفاء بما يمكن منه – واستمرار التجريب أو الاجتهاد مع الاستقراء.

---

(٦١) ص١٣٥- ١٤٤- ١٦٠- ١٨٣- ١٩٣- ٢١٧.

(٦٢) ص١٩٨ وما بعدها.

(٦٣) ص٩١ وما بعدها.

(٦٤) ص٩٢ وما بعدها.

(٦٥) ص١٩٨ وما بعدها.

(٦٦) ص٤٦ وما بعدها.

(٦٧) ص٩٣ وما بعدها.

(٦٨) ص١١٧ وما بعدها.

(٦٩) ص٦٨ وما بعدها.

(٧٠) الإمام جعفر الصادق ص٣٠٧ للمؤلف طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، والأبواب السابقة في الكتاب الحالي ص٤٤ وما بعدها.

وأول ما يبده المرء أنه لا معدى لمثله أن يكون قد وقف على هذه الدعائم "الأساسية" للمنهج، بل "الخصوصية" له، مجموعة في صعيد واحد، ليبني عليها مثل ما يبني عليها علماء الأصول تماما، إلا أن يكون قد درس وراجع كتب الأصول أو التجارب العظيمة التي تقارب عصره في تاريخها، مما قد يثب معه الفكر إلى تصور النقل عن مصدر متخصص، وعندئذ يكون تنبيه العقاد على استفادة المنهج بطريقة غير مباشرة واردا على سبيل الاحتياط، ولو أجريت المقارنة بأصول الفقه لما اختلف في النقل أحد.

وأي هذا كان فالمنهج الاستقرائي نزل كاملا بالقرآن. والبناء عليه قد تكامل في أواخر القرن الثاني من الهجرة في رسالة الشافعي وتلاحقت فيه الأعمال التجريبية وتكاثرت فيه الشروح طوال القرون التي لحقت حتى تمت الشريعة وعلومها قبل القرن السابع الهجري والثالث عشر للميلاد.

والقرن الثالث عشر هو الذي يقول فيه (روجير) (١٢٩٤) بيكون من ثلاثة قرون قريبة إلى قرن فرنسيس بيكون

If I had my way I shall burn all books of Aristotle for the study of them can lead to a loss of tim.. produce error and increase ignorance.

(ولو أتيح لي الأمر لأحرقت كل كتب أرسطو لأن دراستها يمكن أن تؤدي إلى ضياع الوقت والوقوع في الخطأ وازدياد الجهالة).

ويعلن أن "الفلسفة مستمدة من العربية فاللاتيني على هذا لا يستطيع أن يفهم الكتب المقدسة والفلسفة، إلا إذا عرف الكتب التي نقلت عنها". وهو كما أسلفنا في عجالتنا عن الكندي من كبار دارسي الكندي والحسن بن الهيثم وهما من أعظم ممثلي المناهج العربية والطريقة التجريبية في الإسلام وهما عبقريان عاملان في الرياضيات يضعهما روجير بيكون في الصف الأول مع بطليموس(٧١).

---

(٧١) يقول البارون Carra de Vaux في الفصل الذي عقده لتراث الإسلام في الرياضة والفلك: "إن هؤلاء العلماء كانت لهم عقول طليقة مولعة بالبحث عن الحقيقة فلم يحجموا عن نقد بطليموس".

يقول الشاعر محمد إقبال في كتابه (إعادة تكون الفكر الديني في الإسلام) "إن دبرنج Dubring يقول: (إن آراء روجير بيكون أصدق وأوضح من آراء خلفه. (فرنسيس) ومن أين استمد روجير بيكون دراسته العلمية؟ من الجامعات الإسلامية بالأندلس)".

ويقول Robert Briffault بريفو: "أنه لا ينسب إلى روجير بيكون ولا إلى سميه فرنسيس بيكون أي فضل في اكتشاف المنهج التجريبي في أوروبة".

ولقد كان روجير بيكون يجيد العربية والعبرية ويمارس التجارب المعملية في الطبيعة والكيمياء وقاومه معاصروه، وشد بعض الباباوات أزره. وكان السجن جزاءه في باريس من جراء كتاباته،وهي تعتبر طلائع في العلم التطبيقي الذي يشغل العالم الآن (كالعدسات والسيارات ذات المحرك البدائي والطائرات). وفي القرن الثالث عشر كذلك كتب البرت الكبير كتابه (مآثر العرب). والبرت الكبير من عمد الفكر الكنسي في أوروبة.

٢- وقام بالدراسة الثانية الدكتور جلال محمد موسى في رسالة متخصصة للبحث في العلوم الطبيعية والكونية[٧٢].. فصلت بحوثها تجارب جابر بن حيان وابن الهيثم والرازي وابن سينا والبيروني وبينت أثرها العالمي، وأبرزت اعتماد بعضها على أصول الفقه، وتصدت لتجارب فرنسيس بيكون لتقدير قيمتها في بلوغ النتائج ولخصت أصول منهجه فيما يلي:

١- وجوب اتخاذ طريقة الاستقراء أساسا للتجارب العلمية.

٢- نبذ ما يعرقل البحث العلمي من:

(أ) تغليب العاطفة.

(ب) تأثر الباحث بمركزه العائلي أو الاجتماعي أو الاقتصادي أو ميله الشخصي، ويعبر عن هذه المؤثرات بالأصنام الأربعة.

(أوهام الجنس أو القبيلة والكهف والسوق والمسرح).

(ج) عدم الخلط بين الكلمات والألفاظ التي هي واسطة نقل المعاني.

---

(٧٢) الرسالة بتقديم وتحليل الأستاذ الدكتور محمد علي أبو ريان أستاذ كرسي الفلسفة وتاريخها بجامعة الاسكندرية. ونخص بالذكر مساهمة الدكتور عبد الحليم منتصر أستاذ مادة تاريخ العلم بكليات العلوم.

(د) عدم التشبث بنظريات لا تقوم على أسس منطقية تأذن لها بالاستمرار.

٣- أن كل واقعة لها (صورة) تعينها ويمكن رد الواقعة إلى صور متعددة. ونحن بحاجة إلى فحص الوقائع التي من نوع واد (باستبعاد) كل الصور الممكنة منطقيا (لاستبقاء) العلة (الفعالة) أي الحقيقية للتركيب الباطني يجمع كل ما يتعلق بالواقعة من مشاهدات وتصنيفها في جداول يجري عليها الحذف والاستبعاد لاستبقاء الصورة الحقيقية الفعالة.

٤- إجراء التجارب لمعرفة العلة (الحقيقية). وقد فصل بيكون تجاربه ووضع لها جداول ثلاثة tables لتسجيل الشواهد في جدول الحضور وجدول الغياب وجدول المقارنة. ويمكن إجمال ما تغياه بيكون من تجاربه وجداوله – وقد اختار مثلا عليها ظاهرة الحرارة وذكر لها ٢٧ حالة على سبيل التمثيل لا الحصر – في أنه باستبعاد الحالات (الشواهد) والصور التي لا تكون التركيب الدقيق نستبقي العلة الحقيقية، وقد نقدت الرسالة هذه التجارب من الناحية المنطقية ولعدم الوصول بها إلى مبادئ مجزوم بها واكتفاء بيكون بأنها مجرد فروض. وستقرأ بعد نقد الكثيرين.

ونقف هنا عندما أقام عليه مبادئه من أصول فأنت ترى بادي الرأي:

١- فيما يتعلق بالمبدأ الأول:

أن اتخاذ الاستقراء أساسا هو المبدأ الأول في البرهنة على العقيدة الإسلامية وعلى الحقائق العلمية. وقد أسلفنا عشرين مثالا على ذلك في الباب السابق. وبيكون يناقض فيه المنهج الأرسطي والمسلك الكنسي فيلتزم فيه المنهج الإسلامي.

٢- فيما يتعلق بالمبدأ الثاني:

أن ما يعرقل البحث العلمي عنده أقسام أ – ب – ج – د.

أما عن القسمين أ = د وهما تغليب العاطفة على العقل أو المنطق أو هما الحكم بالهوى أو على غير أصل. فالعلم الإسلامي يدفعهما بأصول الفقه وشروط قياس الأولى أو المثل بما فيها من تخريج المناط وتحقيقه ثم تنقيحه، ثم التزام شروط في القائس وعلمه، وخبرته، إلى جوار دينه وورعه والتزامه باجتهاده في حق نفسه. وهذه مسئولية كاملة في الدنيا، قبل مسئولية مماثلة في الآخرة.

يقول عليه الصلاة والسلام: "تناصحوا في العلم فإن خيانة أحدكم في علمه أشد من خيانته في ماله والله سائلكم عنه". فتغليب الهوى أو الحكم بغير أصل خيانة للأمانة: وفيها وعيد رسول الله وأمر القرآن بأداء الأمانات. وقد سلف بيان أن (هذا العلم دين) والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: (العلماء ورثة الأنبياء) ولا يكونون كذلك إلا باجتماع أعلى شروط الكفاية لأداء الأمانة العلمية.

وأما عن القسم: ب وهو تقليد السابقين أو التأثر بالأصنام الأربعة.

فالعلم الإسلامي أوسع في المحظورات على المفكرين من كل خواطر بيكون عن الأصنام. وأول حظر تجده في الآيات العشر التي وردت في الباب الأول لحماية المنهج بوقاء كامل من الخرافات والهوى والعمل بغير دليل أو بالظن أو بالوهم أو بعبادة الصنم. وقد كرر الشافعي ذلك في خطبة "الرسالة" وورد حظر الغزالي لهذه الأغاليط بترتيب تبعه بيكون. والفقه الإسلامي لا يسيغ التقليد إلا للجاهل، إذ يعمل بما يعلمه العالم. أما متابعة الأحبار دون دليل، فتلك عبادتهم كما يقول الإمام جعفر. وقد فصلنا من قبل هذا النهي عن التخليط في غير موضع. وأصلنا أصل التناصح في العلم من القرآن والسنة وتحدثنا عن علم المناظرة.

القسم: ج: تحري معاني الكلمات والألفاظ حتى لا تختلط النتائج وهذا جزء صغير من أبواب كبيرة في المنهج الإسلامي تتعلق بدلالات النصوص وهي الأبواب الأولى في رسالة الشافعي والشافعي – بعد القرآن والحديث – أعلى الأمثلة في دقة التعبير والاختيار للكلمات واستعمالها كالأرقام في الرياضيات.

٣- فيما يتعلق بالمبدأ الثالث وهو تحديد الواقعة "بصورتها" وتحديد الصورة "بالعلة" (الحقيقة الفعالة) وإجراء التجارب لاستخراجها، فإن بيكون ينحو في الأمور الثلاثة منحى المنهج الإسلامي بدقة لا تحدثها الصدفة ويناقض المنطق اليوناني (الأرسطي) في الصميم:

١- حيث يكتفي في التعريف بتمييز الشئ من غيره بصفاته لا بالكنه أو الماهية. وقد شرح ذلك ابن تيمية في القرن الرابع عشر للميلاد كمان أسلفنا.

٢- وحيث يبحث عن العلة المؤثرة، وقد فصلنا ذلك في فصل الاجتهاد.

٣- وحيث (الحصر والغربلة) هي التقسيم والسبر وتحقيق وتنقيح المناط وقد فصلنا ذلك هنالك.

٤- وفيما يتعلق بالمبدأ الرابع وهو "التجربة" أي الجداول لمعرفة "العلة الحقيقية" والاستنباط من المشاهدات، فهي تنطبق على التجارب المعملية وعلى "القضايا القياسية" التي وضعت لها شروط القياس في الأصل وكلا النوعين ضرب في تحقيق الاستقرار وتدقيق الاستنباط منه وقد أمعنت في الاحتياط لها القيود العامة في الشروط التي وردت في رسالة الشافعي.

٥- أما طريقة جمع المشاهدات واستبعاد ما لا يتصل بالواقعة واستبقاء العلة الحقيقية فحاصلها – مع تطويل بيكون في الجزء الثاني من كتابه – هو ما يقابل في الفقه الإسلامي (التقسيم والسير)، وقد سلف الكلام عنه. وقد قرر الفخر الرازي كما أسلفنا أن السبر هو تنقيح المناط، وهو اختبار الوصف الذي تتجلى فيه (العلة) [٧٣]. ولكل تجربة معملية في الطبيعة أو الكيمياء أو التفكير الإنساني ظروفها.

وشروط الشافعي بالغة بعمومها وتجريدها مبلغ القانون في كل اجتهاد عقلي، وبالغة بالدقيق والتثبت والأناة وبذل غاية الجهد وسماع رأي الغير وتفضيل سماعه وعدم الميل مع الرأي الذاتي أبعد مما تبلغه المبادئ الواردة تحت أ – ب – ج – د – و من المبدأ الرابع عند بيكون، وفي تجارب الطبيعيين الإسلاميين كابن الهيثم والكندي وغيرهما اعتماد واضح على أصول الفقه وترديد لبعض شروط الشافعي.

ولقد ندد الشافعي في خطبة الرسالة بالجوانب السلبية في استعمال العقل وبلورها الغزالي في قوله (وكثرة أغاليط النظار من):

١- التصديق بالمألوفات.

---

(٧٣) ص٩١- ٩٢.

٢- والمسموعات في الصبا من الأب والأم.

٣- والأستاذ.

٤- وأهل البلد المشهورين بالفضل.

وقوله عن تجسيد الوهم (ولو عرضت الوهم على نفس الوهم لأنكره فإنه يطلب له سمكا ومقدارا ولونا فإذا لم يجده أباه).

وما ورد على لسان الشافعي والغزالي قليل من الكثير الذي تتعدد أبوابه في نصوص الآيات التي نزلت في الكتاب الكريم.

* * *

وإذا وضعنا ما يأمر به بيكون في جدول، وما ينهى عنه في جدول، ظهر لنا في الجدول الأول أنه يحتم الأخذ بالاستقراء، ويحتم التعريف بالعلة الفعالة وهو تعبير يقابل "العلة المؤثرة" في أصول الفقه ويحتم الحصر والغربلة، ويحتم التثبت في التجارب. وكل ذلك يحتمه المنهج الإسلامي.

وظهر لنا في الجدول الثاني أنه ينهى عن التعريف اليوناني "الأرسطي" بالكنه أو الماهية، وعن الإبقاء على نظريات لا تقوم على أسس منطقية وعن الخلط بين معاني الكلمات والألفاظ وتغليب العاطفة والتأثر:

١- بالمركز العائلي.

٢- أو الاجتماعي.

٣- أو الاقتصادي، أو التأثر بالمألوفات والمسموعات أو الأوهام وغيرها مما يمت إليها بسبب.

وهذا الذي ينهي عنه، منهي عنه في المنهج الإسلامي نهيا يتبعه العلماء المسلمون على مدار قرون في جميع العلوم.

ولئن كان اتباع المألوف محببا لأنه أخذ بالعادة، فإن النهي عن المألوف تكليف ضد الطباع وخروج على القاعدة واستثناء. وإذا تعددت وتجمعت وجوه النهي والاستثناء فشملت كل ما نهى عنه المنهج الإسلامي وانضاف إلى ذلك ظهورها مجموعة في صعيد واحد، مضاهئة لنصوص مطبقة من ألف سنة، لكان من أقرب التصورات إلى ذهن البعض أن هذه الممنوعات منقولة من مجموعة. أو – على الأقل – نتيجة دراسة لم يعلن عن مصدرها.

ولا يعارض هذا التصور قول بيكون: إن العرب فتنوا العلوم في عصور جرداء دون أن يزيدوا وزنها. وهذا القول – بذاته – يشئ بأن قائله يعرف وجود الوزن الذي لا يقدره. وإن كان ينقض دعواه فيه إجماع المستشرقين الذين درسوا من بعده – وأقوال من سبقوه – على أن أوربة ورثت عن العرب تراثا ضخما، وأن من ثمراته ما عبر عنه واحد منهم (روح بيكون) ذاته! وهذا إجماع يؤيد العقاد في يقينه أن فرنسيس بيكون استفاد من أعمال روجير بيكون كما استفاد علماء الإنجليز جميعا بعد القرن الثاني عشر.

ولا يمكن أن يكون من المصادفة أن يجري الكندي تجاربه عن الجاذبية – وهو محل إعجاب روجير بيكون – وأن تقرأ كلام فرنسيس بيكون عنها دون أن يجري عليها أي تجربة.

وإذا أوردت عنه دائرة المعارف الفرنسية إرهاصا بقوانين نيوتن عن الجاذبية إذ تذكر قوله: "لا بد أن الأشياء الثقيلة تندفع نحو باطن الأرض أو أن باطن الأرض يجذبها فتنجذب إليه" فالأحق بالفضل هم الذين أجروا تجاربهم لإثبات ذلك قبل مئات السنين وفي طليعتهم الكندي.

وليس غريبا أن يسبق البيروني بتجاربه على الجاذبية، فرنسيس بيكون في كلامه المجرد عن التجربة في صدد الجاذبية، وإنما العجيب أن نجد بيكون يستعمل التعبير بالتأكيد الذي استعمله البيروني في عبارته التي نقلناها من قبل ""لا محالة" أن الخلاء الذي في بطن الأرض يمسك الناس حواليها".

وهذا القول، كأنما هو إصبع تشير إلى معرفة فرنسيس بيكون بأعمال الكندي وأقوال البيروني أو تجاربهما. فتكلم عن عمل سبق به آخرون ليلفت اللاحقين إلى فحواه. وسكت عن ذكر السابقين.

ولقد وزن الكندي والبيروني السوائل، وقاسا الزوايا الهندسية، واستبحرا في تجارب الفلك وفي عملهما بالمراصد وقياس الأرض، وفي نحو ذلك كتب بيكون، وأعلن عن آماله في اكتشافات فيه... لكنه لم يجر في أمر واحد منها تجربة.

ولا يتمارى أحد في أن بيكون هو المعبر ببلاغة وتألق عن آمال نادى بها السابقون عليه صارت في عصره صيحة عامة، وسمعها في أيام يفاعه في كمبردج قبل أن يبلغ السادسة عشرة، فكتب ضد أرسطو، وعاد إليها بعد نضوجه بدعوة شاملة لملاحظة الطبيعة وإجراء التجارب على الأشياء في الأرض والسماء وفي الطب الإنساني والحيواني وسائر العلوم – ولكن مما لا مراء فيه أيضا أن مؤلفات العرب كانت في متناول رجل له إمكاناته.

والحق أن القرآن ينادي الناس أجمعين بأن يسيروا في الأرض، وأن يكشفوا عجائب صنع الله، وأن ينظروا في السماء وفي كل الأشياء. ولا تقتصر دعوته على المؤمنين أو المسلمين.

(وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تبصرون. وفي السماء رزقكم وما توعدون).

* * *

ولا مراء في أن عمل العلماء العرب كان بين أيدي الأحبار والدارسين كافة في الأديرة والمكتبات العامة أو الخاصة. ومنها كتب الطب الشهيرة لابن سينا والرازي التي كانت تدرس في الجامعات جميعا حتى آخر القرن السابع عشر بعد موت فرنسيس بيكون بثلاثة أرباع قرن. وقد ظل العرب في إسبانيا مواطنين من أهل أوربة حتى طردوا منها في حياة فرنسيس بيكون.

وإذا لوحظ على فرنسيس بيكون أو ديكارت أو القديس توماس أو دانتي أو بترارك إنكار فضل العرب، في حين يبرز العرب فضل السابقين من الإغريق في كتابات الكندي والمسعودي والرازي وابن سينا والبغدادي وابن النفيس وابن رشد وأمثالهم كما سلف البيان – فهذا دليل على أن العلم دين في المجتمع الإسلامي وأنه يخضع في مجتمعات أوربة في ذلك الزمان إلى اعتبارات الزمان والمكان.

* * *

ومهما يكن من أمر، فالكتاب الحالي يبلغ غرضه بإثبات أن كل أصول بيكون قد سبق تقريرها بأمر أو نهي في القرآن. وقد فصلها علماء الأصول، وعمل على منوالها علماء لا يحصيهم العد، في المعاهد والمحاكم أو البيمارستانات أو المراصد أو الآلات الخاصة أو المعامل، في الفقه أو الطب والفلك والصيدلة والرياضة والهندسة والحساب وما إلى ذلك من أنواع العلوم، على مدى ألف عام سابقة على ظهور كتاب "المنهج الجديد".

وإذا انكشفت مراجع نقل عنها بيكون أو لم تنكشف، فلا يتغير الأمر، بل تنضاف حجة للقرآن، وللناس فيه كل يوم علوم غضة. يستوي في ذلك أن يعملوا بمنهجه مأخوذا بطريقة مباشرة منه، أو من أهل دينه، أو بطريقة غير مباشرة حين يبلغ الآخذون من النضوج الفكري ما يمكنهم من كشف بعضه أو كله والدعوة إليه أو العمل به.

ملاحظات في تقدير المنهج الجديد لبيكون

وحقيق علينا بعد المناقشة الموضوعية لأصول كتاب "المنهج الجديد" وطريقته، أن نعرض لأقوال المعقبين عليه وأقربهم إليه جريجتون وتشرش. وقد أظهرانا على أن أثره، أهم من طريقته المنطقية في توجيهه الأفكار إلى ارتياد الطبيعة. وكما أشار جريجتون إلى نقد ماكولي (١٨٥٩) له، أشار العقاد إلى (شك إللس Ellis) في إمكان الوصول عن طريقه، إلى أسرار الطبيعة وإلى قول Spedding سبدنج "إن بيكون لم يخط خطوة واحدة في الطريق التي تقدم بها العلم تقدمه الصحيح".

أما إجراءات جمع الشواهد التي أسهب فيها، فلا توصل إلى يقين، وإنما يوصل إليه الاستقراء الكامل. وسنسمع أقوال الآخرين فيها بعد.

* * *

ومن حقنا أن نلاحظ بعض ملاحظات تتعلق بالتناصح في العلم الذي أمر به الرسول عليه السلام، وجعل الخيانة فيه أشد من الخيانة في المال. فالعيوب الخاصة بذلك تصيب صاحب (المنهج الجديد) في الصميم.

وأولى الملاحظات:

القدح الجزاف أو الإغفال العمد لتجارب يعرفها لاثنين من معاصريه.

أولهما جلبرت، وكان طبيب الملكة اليزابث حتى ماتت سنة ١٦٠٣، ومات بعدها سنة ١٦٠٥ والمقربون إليها – وكان منهم بيكون – محل غضب الملك الجديد جيمس الأول إذ أعدمت الملكة اليزابث أمه بمحاكمة صورية بعد سجن طويل بتهمة الخيانة. والتاريخ العلمي يسجل لجلبرت ما لا يسجله، أو قريبا منه، لمعاصر له من الإنجليز. وهو سبقه في تجاربه على الحرارة والمغناطيسية ومبادئ الكهرباء، وكان بيكون إبان حياته قريبا منه إذ كان بيكون في خدمة

الملكة ضد صديقه وعدوها كونت اسكس Essex، وسيكتفي في القدح بكلمة عامة سبق نقلها. "فقرة ٦٤ من الجزء الأول من المنهج الجديد"(٧٤).

وثانيهما هارفي صاحب التجارب العالمية على الدورة الدموية، وكانت تجري على الحيوانات البرية في غابات الملك جيمس، وكان بيكون يحوم حوله، وقد أعلن هارفي نتائج تجاربه سنة ١٦١٩ قبل ظهور "المنهج الجديد".

* * *

والملاحظة الثانية:

أن المؤلف لا يعرف القدر الضروري من العلم بما يحدث من الكشوف العلمية في عصره، أو في القرن الذي ولد فيه، أو في قرون عشرة نقلت العالم من عصور الظلمات إلى عصر الإحياء وعصر النهضة، أو هو ينكرها. فلم يذكر كشوف جاليليو وكبلر وهما معاصران له تماما، وعارض الكشف العظيم لكوبرنيق.

والاعتذار بعدم العلم ليس أقبح بصاحب "المنهج الجديد" من عذر الخوف من ذكر رجال تعارض الكنيسة كشوفهم أو مؤلفاتهم. ففي حياته كانت تجارب جاليليو تحدث الدوي في أوروبة من بيزاو بادوا سنة ١٥٩١ ومنها إظهاره أهل الأرض على أجرام السماء سنة ١٦٠٩ – بمنظاره، وهو يؤيد كشوف كوبرنيق. ولم يذكر بيكون كشوف معاصره كبلر (١٥٧١– ١٦٣٠) التي كانت تؤيد كشوف كوبرنيق لأن الكنيسة حرمتها سنة ١٦١٦ ولولا قوانين كبلر الفلكية ما كانت قوانين نيوتن الطبيعية.

وجاليلو وكوبرنيق وكبلر، هم الفرسان العظماء في ارتياد الطبيعة على أساس رياضي قائم على الأرقام.

وبيكون يمجد الكشف الطبيعي إذا كان من ذلك الباب. يقول في الفقرة ٨ من الجزء الثاني من "المنهج الجديد": "إن أحسن فحص للطبيعة هو الذي تطبق فيه أرقام الحساب على الطبيعيات" وجاليليو يقول "إن الطبيعة مكتوبة بلغة رياضية".

---

(٧٤) انظر ص٢١١ من الكتاب الحالي.

ولم يغفر له هذه النقائص من جاء بعده من الفلاسفة، كما جاء في الموسوعة الفرنسية "تراجم عالمية – قديمة وحديثة – (ميشو) – تحت اسم جاليليو"

Biographies Universelles Anciennes Et modernes (Michaud)

نقلا عن الفيلسوف دافيد هيوم (١٧١١- ١٧٧٦) حيث يقول: (إذا اعتبر بيكون مؤلفا وفيلسوفا فهو – مع تقديره من هذه الناحية – صغير جدا بالنسبة لجاليليو. فبيكون أظهر من بعدي طرق الفلسفة الحقة. أما جاليليو فلم يظهرها فقط، بل مشى فيها بخطواته الواسعة. ولم يعرف بيكون أي شئ عن الحساب والرياضيات.وجاليليو كان فيها مبرزا. وهو أول من طبقها في الفلسفة الطبيعية. وفي حين رفض بيكون فلسفة كوبرنيق باحتقار دعمها جاليليو بأدلة عقلية وحسية. وأسلوبه جاف عسر. تصفو روحه أحيانا وقليلا ما تكون طبيعية، كما يظهر أنها تفتح الباب للمقارنات المعقدة والمقولات الغامضة التي تميز هؤلاء الإنجليز. أما جاليليو فأسلوبه محبب، وفيه حياة. لكن الطليان ليسوا كالإنجليز يخلعون على كتابهم الكبار ألقابا وأماديح يغلب عليها الغلو أو التحيز).

وتضيف موسوعة التراجم العالمية تحت اسم جاليليو ما يعتبر نقدا دائما لطريقة بيكون المنطقية.

(إذا كان لبيكون كل هذه المشاركة في العلوم التي ظهرت بعده، فليظهروا لنا واقعة واحدة أو نتيجة واحدة لاختراعات فيها بعض فائدة الآن. وإذا كانت مبادؤه العامة منتجة إلى الدرجة التي أكدوا بها أنه توقع قدرا كبيرا من الكشوف الحديثة، فمن المفترض أن الناس لم تفرغ بعد من محتويات كتابه. وفي هذه الحالة يكون على الذين يقولون إننا مدينون له بأشياء كثيرة أن يحاولوا أن يستخرجوا منها مقدما بعض الكشوف التي تقدمها لنا كل يوم طريقة جاليليو).

أما دائرة معارف العلوم والآداب والفنون الكبرى الفرنسية

Grande Encyclopedie Des Sciences,Des letters et Des Art.

فتدرس حياة بيكون وتفيدنا أنه إذ أقام بفرنسا كانت أكثر إقامته في مدينة بواتييه. وعين سنة ١٦٠٧ محاميا عاما عندما رضى عنه الملك الجديد، فأثرى من قضايا مالية ومنح الألقاب. وفي سنة ١٦١٣ عين نائبا عاما ثم رئيسا للمحكمة العليا، وأوردت الموسوعة حديث محاكمته والحكم بعزله من جميع وظائفه وعدم جدارته بأي وظيفة عامة وطرده من البرلمان وحبسه في برج لودر. وقالت:إن جوريف ميستر يصف تفكيره بأنه مشوش Espritbrouillonet confus كما أساء الرأي فيه ليبج Leibig واختتمت صفحاتها متسائلة: "إذا تساءلنا الآن ما هي كشوف

بيكون؟ فالجواب لا شئ. إلا آراء غير واضحة مع ومضات فكر وآراء مشوشة لا تكفي لتكوين اكتشافات. وكان قليل المعرفة بعلوم عصره. عارض نظرية كوبرنيق وجهل كشوف جاليلو وكبلر. وباختصار: هو لا يستحق المكانة العالية التي رفعه إليها بعض. ولا الزراية المتعالية التي عامله بها بعض. وكان يمتاز بتعبيره عن الأفكار الجديدة بوضوح فيه من التألق أكثر مما فيه من الصحة. ذلك مع التسليم له بفضل إيضاح الشروط الدقيقة لطريقة التجربة ومعارضة الاستقراء القديم بطريقة اتبعها كل التجريبيين المحدثين العظماء والتي حملت بحق اسم استقراء بيكون".

وفي هذه الخلاصة تأييد لكلام من أسلفناهم في جملته، عن أسلوبه ومستواه وحفزه للهمم ومطالبته بإجراء التجارب فهو شاهد للتجريبيين السابقين وللمنهج الذي عملوا به أي شاهد للمسلمين.

والملاحظة الثالثة:

هي التعصب الديني: وقد ورثه من أبويه، وتغلغل فيه من بيئته والتزامه أفكارا غير متعمقة اكتفائه بالقليل الذي يسمعه عن الكثير الذي يجب أن يتعلمه، أو اعتناقه أفكارا غير صحيحة خوفا من غضب الكنيسة، كما يظهر من معارضته آراء كوبرنيق إذ حرمتها الكنيسة، مما أخضعه (لأصنامه الأربعة).

من أجل ذلك رأيناه يقحم الأتراك العثمانيين في مناسبات علمية بحتة، لا صلة بها لهم، لمجرد أن يذمهم: نقرأ ذلك في كتاب: (تقدم العلوم) الصادر سنة ١٦٠٥، حيث يقول في صدد الفلسفة إذ ينقد أرسطو ص٩٣: (إن أرسطو متمثلا بالطريقة العثمانية – تصور أنه لا يستطيع أن يحكم بأمان إلا إذا قتل كل إخوته) ويكرر ذلك الأسلوب في ص٢٤٥ حيث يتكلم في أحد أمثاله أو حكمه رقم ١٤ وعنوانه (الرجل العدل رحيم بالحيوان ولكن رحمة الشرير قاسية) فيقول: "الأتراك مع أنهم أمة قاسية متعطشة للدماء سواء في كلامهم، وفي نظامهم، يحسنون للحيوانات ويعانون أنهم لا يعذبونهم".

ويعود إلى ذلك في "المنهج الجديد" بعد خمسة عشر عاما فيقول في فقرة ٦٧ من الجزء الأول: "لقد مرت فلسفة أرسطو بعد أن دمرت الفلسفات الأخرى، كما دمر العثمانيون إخوتهم).

وقد يكون هذان الذم والإقحام من جراء ما أرنا إليه من قبل وهو إرضاء ملك مغاضب من أسرة جديدة، حكمت بعد انقطاع دابر الملكة اليزابث وأسرتها، لصلاتها الطيبة بالأتراك

العثمانيين[٧٥] وقد سبق لبيكون الإزراء بطيبها جلبرت بعبارات مرسلة. أو لأن الأتراك العثمانيين كانوا يسيطرون على دول أوربة الشرقية حتى عاصمة النمسا، وفي الجنوب في البلقان مما جعله يحصر العلم في عصره في الأمم الأوربية الغربية كما نقلنا من قبل أو لأن الأتراك مسلمون. ومن مؤلفاته: صلوات وكتابات دينية وتراجم شعرية لمزامير دينية وهو صاحب نظرية تكوين حلف أوربي صليبي لمقاومة الأتراك[٧٦].

والملاحظة الرابعة:

هي الاستقراء المعيب بالمجازفة أو الجهل أو الهوى فيما نسبه إلى العلم عند العرب بعبارات مرسلة لا سند لها إلا التعصب وينقضها الواقع الذي يملأ قرونا عشرة سابقة بأعمال هي أضخم أعمال في تاريخ الحضارة البشرية، بما فيها من نزول القرآن ومنهاجه ورسالة الرسول وعظائمها وعلوم تملأ قرونا بعد قرون.

---

(٧٥) كانت الأساطيل العثمانية تسيطر على البحر الأبيض المتوسط منذ انهزمت أمامها أساطيل دول أوروبا في معركة حربة أمام الشاطئ الأفريقي كما انهزمت أساطيل أوربة مجتمعة في معركة لابانتو سنة ١٥٧١ وفي سنة ١٥٧٥ صارت بولونيا – مثل المجر منذ سنة ١٥٢٦ – تابعة للدولة العثمانية وفي سنة ١٥٣٠ حاصرت جيوشها فيينا وأصبحت دولة النمسا تدفع الجزية لها ثلاثين ألفا من الذهب كل عام حتى سنة ١٦٠٦ ثم تحول المبلغ إلى ما سمي (هدية سنوية مناسبة)باتفاق (سيتافور وتوك) مع بقاء بولونيا والمجر تابعتين للدولة العثمانية.

(٧٦) ويقول صاحب حقائق الأخبار عن دول البحار: إن الملكة اليزبث الأولى طلبت "من الدولة العثمانية قبل واقعة الأرمادا المذكورة نجدة بحربة لمساعدتها في محاربة اسبانيا وقد ذكر المؤرخ هامر الألماني صورة المكاتيب الأربعة اللاتينية. فالمحرر الأول تاريخه ١٥ نوفمبر ١٥٨٢ للوزير الأعظم محمد باشا الصوقللي. والثاني في ٧ من نوفمبر سنة ١٥٨٧ أرسل مع سفير مخصوص ببعض الهدايا للحضرة العثمانية. والثالث في شهر يوليو من السنة المذكورة يتطلب إخلاء سبيل الأسرى التابعين للدولة الإنجليزية. والرابع تاريخه ٧ أبريل سنة ١٥٨٨ بشر به الدولة بانتصار الأساطيل البريطانية على (الإرمادا) الإسبانولية انتصارا تاما. وكان السفير الإنجليزي تحصل على وعد تام بالمساعدة من قبل الدولة العثمانية، بناء على التماس دولته كما تقدم ولكنه لاشتغال الدولة بحرب العجم لم تتمكن من القيام بما وعدت به. إلا أنه في الأغاني والمراثي التي نظمها الإنجليز في هذه الواقعة المشهورة، ذكر ذهاب فرقة من أساطيل العثمانيين لمساعدة الإنجليز. وبالنظر إلى ذلك نقول: إنه مما لا شبهة فيه أن أحد رؤساء البحرية العثمانية المتطوعين المدعو سنان رافق مع فرقة من الأسطول العثماني الأميرالين درك ورلي في القتال الإنجليزي" وقد مات درك سنة ١٥٩٦ وهو أثير عند الملكة.

وليس صحيحا أن العرب أو الفلسفة المدرسية فتنت بالدراسات المتعددة، العلوم أكثر مما زادت في وزنها. وليس صحيحا أن ألف عام للإسلام كانت صحراوات أو فراغات في تاريخ الحضارة، كما قال بيكون في الفقرة ٧٨ من الجزء الأول من المنهج الجديد. وسندع للفلاسفة الأوربيين الدارسين أن يبينوا وجوه البطلان في هذه الدعوى. وهي وجوه تجمعها كلمة واحدة لراندال "إن أوربة ورثت عن العرب روح بيكون" فروح بيكون بتمامه ميراث عربي كما يقول قومه.

وآية ذلك أن "التجربة" التي هي جماع (المنهج الجديد) إن هي إلا المنهج العملي الذي صيره العرب "علما" فمنذ القرن الثالث للهجرة التاسع الميلادي – يسميه الجاحظ "علم التجربة"[٧٧] ويجري تجاربه على قواعده. ويتبعه جميع العلماء العظماء في كل العلوم على ما فصلنا في الأبواب السابقة. وسنرى بعد مظاهره في الفقه والقضاء، لنظهر على المنهج في جميع أبواب العلوم.

والآية الأخرى على ذلك أن التجربة في أحسن حالاتها عند بيكون هي التي تستعمل فيها الرياضيات كما يقول في فقرة ٨ من الجزء الثاني من "المنهج الجديد".

وللعرب في هذا الشأن بالذات دين في ذمته وذمة العالم. تشهد به حضارة بتمامها وحسبك أدلة بعض مسلمات:

فعلم الجبر – كما يقول درابر قد وصل إليه الخوارزمي بالتجربة[٧٨] وبه وصل العالم إلى العمليات الدقيقة العليا في الهندسة وفي الحسابات الفلكية وما في مستواها. وتلك هي القوى العجيبة في حسابات العرب، ومنها أرقامهم التي طوعت للحساب أن يبلغ حدودا غير متناهية.

وفي عصر الخوارزمي (٨٧٥) وعصر الجاحظ، احتل الكندي (٨٧٨) مكانه العالمي. وفيه قول داردانو (١٥٧٦) في إبان حياة بيكون، إنه: "واحد من الاثنى عشر عبقريا الذين ظهروا في العالم". ومن قبلهم كان جابر وأثره في الكيمياء – كما يقول برتيلو – "كأثر أرسطو في المنطق" وقد حكم منطق أرسطو العالم.وفي جابر قول لكلير: "إنه أكبر علماء القرون الوسطى".

ومن بعدهم كان الحسن بن الهيثم وكشوفه في القرن الميلادي الحادي عشر وفيه قول الحبر الجدير بالإعجاب روجير بيكون: "إن الكندي والحسن بن الهيثم في الصف الأول مع

---

(٧٧) ص١١٤ وما بعدها.

(٧٨) ص٢٣٤ وما بعدها.

بطليموس". وبطليموس هو الفلكي المصري الذي سيطرت كشوفه على فكر العالم حتى عصر كوبرنيق وجاليليو وكبلر وكتب هؤلاء العرب مترجمة ومطبوعة في متناول فرنسيس بيكون مثلما كانت في متناول معاصره كاردانو في القرن السادس عشر.

* * *

والطبيعة الإنسانية كالطبيعة الكونية تشغل مكانها في كتابي فرنسيس بيكون، فالطب فرع ضخم في العلم، والإنسان هو موضوعه وفي عصر بيكون، وبعد عصره، كان كتاب القانون في الطب لابن سينا إنجيل العلوم الطبية في كل جامعات أوربة ومعه كتابا الرازي حتى نهاية القرن السابع عشر. وتجارب الرازي أعظم تجارب العصور الوسطى في الطب وعلم الدواء وتفاعله. وبحوث ابن سينا بلغت من أغوار النفس الإنسانية كشف علم بتمامه هو الطب النفسي، كما لم يزد الطب الحديث إلا القليل على دراساته لبعض الأمراض الشائعة.

وفي القرن الذي عاش فيه بيكون، كانت طبعات نظرية ابن النفيس في الدورة الدموية تتتابع، ويجري عليها "هارفي" تجاربه، وبيكون ليس ببعيد منه.

وفي القرن الحادي عشر الميلادي، كان البيروني فارسا من فرسان الطبيعة في أعلى مقام وفي أكثر علوم الرياضيات. يقول عنه أريو بوب في العصر الحالي:"في أي قائمة تحوي أسماء العلماء يجب أن يكون لاسم البيروني مقامه الرفيع ومن المستحيل أن يكتمل بحث للرياضة أو الفلك أو علم الإنسان أو المعادن دون الإقرار بمساهمته العظيمة في كل تلك العلوم". بل قول المستشرق سخاو: "إنه أعظم علماء عصره ومن أعظم العلماء في جميع العصور".

ولا يعذر أحد – بله عالم من العلماء أيا كانت درجته في العلم – لعدم العلم بالحقائق الأساسية في تاريخ العالم، مع توافر ترجمتها إلى اللاتينية وإلى اللغات الحديثة من قبل ميلاده.

وللبيروني ١٨٠ كتابا ورسالة في الرياضيات العالمية والفلك والهندسة يرفعها ما يرهوف وسمث والمستشرقون إلى أعلى مقام علمي عالمي.

ولقد أوشك البيروني بموازينه في الثقل النوعي أن يساوي أرقام موازين هذا العصر البالغة الدقة – كما أسلفنا – وقاس محيط الأرض بأدوات من صنعه وقرر كروية الأرض بتجاربه الفعلية وأدلته الحسية لا بتخمينات.

بل قرر ما لم يعرفه الأوربيون إلا بعد كشوف كوبرنيق: "إن الأرض متحركة حركة الرحى على محورها".فالبيروني يسبق نيوتن (١٧٢٧) بسبعمائة عام. ويسبق كوبرنيق بخمسمائة عام. وهو وابن الهيثم يسبقان كيلرو بستمائة عام. كما بين مصطفى نظيف. والخوارزمي يسبق ليبنتز (١٧١٦) في عجائب الحساب بتسعمائة عام كما قرر كاجوري.

وليس ما نقوله إلا أمثلة من الرياضيات اخترناها في الباب الذي اهتم به صاحب "المنهج الجديد" لنحجه بأدق ما يتصوره. وإذا اقتصرنا على العلوم التي يزعم أنها فتت دراسات العلم دون أن تزيده في الوزن، فلعل أبلغ حجة ضده تركه ليفنده "العالمون المنصفون" من قومه.

ogeikandi.com

- **دراسات المستشرقين بعد بيكون:**

- **المنهج الإسلامي:**

تواترت أقارير العلماء الأوربيين في العصور الحديثة بآثار العلماء العرب من الرياضيين والطبيعيين وأمثالهم في العلم الحديث وفلسفته. ويهمنا في هذا المقام ما يتصل بالمنهج التجريبي،ويصحح كلام صاحب (المنهج الجديد) Novum Organum ومنهم سديو (١٨٣٧) يقول:

"كان استخراج المجهول من المعلوم، والتدقيق في الحوادث تدقيقا مؤديا إلى استنباط العلل من المعلولات وعدم التسليم بشئ إلا بعد التجربة، مبادئ قال بها العرب. وكان العرب في القرن التاسع (الميلادي = الثالث الهجري) دعاة هذا المنهاج المفيد، الذي استعان به علماء القرون الحديثة بعد زمن طويل للوصول إلى أروع الاكتشافات...".

ويقول: "إن البرت الكبير مدين لابن سينا في كل شئ. وإن القديس توماس الأكويني مدين في كل فلسفته لابن رشد".

والقديس توماس تلميذ لألبرت الكبير. وكلاهما من الدومينيكان في حين كان روجير بيكون من الفرنسكان.

أما ويل ديورانت فيقول: "إن عصور التاريخ الذهبية هي التي أنجبت في مثل ذلك الزمن القصير ذلك العدد الجم من الرجال الذين ذاع صيتهم في الحكم والتعليم والآداب والجغرافيا والتاريخ والفلك والفلسفات والطب كما نجد في الإسلام في أربعة القرون الفاصلة بين الرشيد (١٩٢) وابن رشد (٥٩٥)".

ويعلن جوستاف لوبون "أن العرب أدركوا بعد لأي أن التجربة والمشاهدة خير من أفضل الكتب، ولذلك سبقوا أوربة إلى هذه الحقيقة التي تعزى إلى بيكون (فرنسيس) أنه أول من أقام التجربة والاختبار اللذين هما ركن المناهج العلمية الحديثة. فالمسلمون أسبق إلى نظام التجربة في العلوم"[٧٩].

---

(٧٩) كلف الإمام محمد عبده فتحي باشا زغلول بترجمة كتابه "تاريخ العرب".

ولو قرأ القرآن كله أو بعضه لعرف أن العرب لم يدركوا ذلك بعد لأي وإنما هم مأمورون في القرآن بالعلم وبمنهجه من استعمال العقل والحواس، أي التجربة الفعلية مع الحرية الكاملة.

ويتتابع كشف المستشرقين عن المنهج الإسلامي من كتب العلماء التطبيقيين. يقول درابر في كتابه (النزاع بين الدين والعلم):

(كان الأسلوب الذي توخاه المسلمون سبب تفوقهم في العلم، فإنهم تحققوا أن الأسلوب النظري لا يؤدي إلى التقدم. وأن الأمل في معرفة الحقيقة معقود بمشاهدة الحوادث ذاتها، ومن هنا كان شعارهم في أبحاثهم هو الأسلوب التجريبي. وهذا الأسلوب هو الذي أدى إلى اكتشاف علم الجبر وغيره من علوم الرياضة والحياة. وإنا لندهش حين نرى في مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من ثمرات العلم في هذا العصر"(٨٠).

بل يقول راندال إن العرب "... كانوا يمثلون الطراز العلمي الفكري في الحياة العملية الصناعية، التي تضفي مثلها الآن على ألمانيا الحديثة. وعلى عكس الإغريق، لم ينصرفوا عن الاختبار العملي والسير عليه في الطب وعلم الآليات وفي التحقيقات الفنية يلوح أنهم أخضعوا العلم لخدمة الحياة الإنسانية مباشرة.

لقد ورثت أوربة عنهم روح "بيكون" التي ترمي إلى مد سلطان الإنسان على الطبيعة، وتداولت العلوم العربية جامعات مونبلييه وباريس وأكسفورد وفينيسيا وبادوا وقرارا. وأنشأ الإمبراطور فردريك الثاني في القرن الثالث عشر جامعة في نابولي لنقل العلوم العربية. واليوم تشهد صورتي الرازي وابن سينا على حوائط كلية الطب وأثر المساهمة التي شارك بها المهندسون العرب في بناء كنيسة نوتردام كما تشهد الكتابة الكوفية والعربية في النقوش الإنجليزية وأبواب الزخرفة والمعمار والنقوش العربية في مناطق كثيرة في أوروبة".

ويركز الفيلسوف المعاصر برتراند رسل على فضل العرب في تعليم أوربة وبخاصة في عصر الإحياء فيقول: "حمل العرب مقاليد المدنية طوال عصور الظلام، وإليهم يرجع الفضل في

---

(٨٠) كتاب الإمام جعفر الصادق للمؤلف طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية الباب الخامس المنهج العلمي ص٢٨١ إلى ٣٠٧.

أن بعض المسيحيين قد حصلوا على كل المعارف العلمية التي تهيأت للشطر الأخير من العصور الوسطى".

ويتحدث روبير بريفو عن ذلك العصر فينبه على سبق روجير بيكون في القرن الثالث عشر في الاستفادة من منهج المسلمين فيقول: "إنه لا ينسب إلى روجير بيكون (١٢٩٤) ولا إلى سميه الآخر فرنسيس بيكون (١٦٢٦) أي فضل في اكتشاف المنهج التجريبي في أوربة. ولم يكن روجير بيكون في الحقيقة إلا واحدا من رسل العلم الإسلامي إلى أوربة المسيحية. ولم يكف روجير عن القول بأن معرفة العرب وعلمهم هما الطريق الوحيد للمعرفة، ولقد انتشر منهج العرب التجريبي في عصر بيكون (روجير)، وتعلمه الناس في أوربة تحدوهم إلى هذا رغبة ملحة.. إنه ليس هناك وجهة نظر من وجهات العلم الأوربي، لم يكن للثقافة الإسلامية عليها تأثير أساسي. وإن أهم أثر للثقافة هو تأثيرها في العلم الطبيعي والروح العلمي، وهما القوتان المميزتان للعلم الحديث".

ويضيف عن الدلالات ومسالك العلل والاستقراء والاستنباط ما يعرف به الروح الجديد: "إن ما يدين به علمنا للعرب ليس ما قدموه لنا من اكتشاف نظريات مبتكرة غير ساكنة. إن العلم مدين للثقافة الإسلامية بأكثر من هذا فقد أبدع اليونان المذاهب وعمموا الأحكام لكن طرق البحث وجمع المعرفة الوضعية وتركيزها ومناهج العلم الدقيقة والملاحظة المفصلة العميقة والبحث التجريبي كلها، كانت غريبة على المزاج اليوناني. إن ما ندعوه بالعلم ظهر في أوربة نتيجة لروح جديدة في البحث ولطرق جديدة في الاستقصاء، طريقة التجربة والملاحظة والقياس ولتطور الرياضيات بصورة لم يعرفها اليونان، وهذه الروح وهذه المناهج أدخلها العرب إلى العالم الأوروبي".

وفي صدد هذا المنهج كذلك،يشير برنارد لويس في جامعات لندن منذ منتصف هذا القرن إلى حرية التفكير وسيادة العقل على السلطة فيقول: "إن أوربة القرون الوسطى تحمل دينا مزدوجا لمعاصريها العرب... تعلمت أوربة من العرب طريقة جديدة وضعت العقل فوق السلطة ونادت بوجوب البحث المستقل والتجربة، وكان لهذين الأساسين الفضل الكبير في القضاء على العصور الوسطى والإيذان بعصر النهضة".

ولا تنسى المستشرقة الألمانية سيجريد هونكه في الأعوام الأخيرة أن تنعى تعصب المتعصبين فتقول:

"إن أوربة تدين للعرب وللحضارة العربية... وكان يجب على أوربة أن تعترف بهذا الصنيع من زمن بعيد، ولكن التعصب واختلاف العقائد أعمى عيوننا حتى أننا نقرأ ثمانية وتسعين كتابا من مائة فلا نجد إشارة للعرب" وتقول عن دور العلوم العربية: "إنها سبة أن يعلم أهل العلم من الأوربيين أن العرب أصحاب نهضة علمية لم تعرفها الإنسانية من قبل، وأن هذه النهضة فاقت كثيرا ما تركه اليونان والرومان، ولا يقررون أن العرب ظلوا ثمانية قرون طوالا يشعون على العالم علما وفنا وأدبا وحضارة. كما أخذوا بيد أوربة فأخرجوها من الظلمات إلى النور، ونشروا ألوان المدنية أنى ذهبوا ثم تنكر أوربة على العرب هذا الفضل".

* * *

ودراسات المستشرقين هذه تظهرنا على أن بيكون كان قليل المعرفة بتاريخ التجربة التي كان يبشر قومه بعصرها المقبل، وأنه يستقرئ أهم حقب التاريخ من زاوية منحرفة، وبهذا يصاب صاحب "المنهج الجديد" بعيبين طالما عابهما على غيره في "نظرية الأصنام" وهما عيبان لا يمحوهما النسيان الذي اصطنعه بولنجبروك ليقول فيه: "كان من العظمة بحيث أني نسيت نقائصه".

وإنما هو هنا حيث قال فيه الفيلسوف دافيد هيوم: "تصفو روحه أحيانا وقليلا ما تكون طبيعية". أو الفيلسوف جوزيف مستر: "إن تفكيره مشوش فيه تخليط" فليس كالتعصب غشاوة وتشويش[٨١]. أو هو حيث نقل عن أفلاطون في كتاب (تقدم العلوم) ص٢٥ عن كاهن من

---

(٨١) أوردت موسوعة دائرة المعارف الكبرى للعلوم والآداب والفنون التي أشرنا إليها من قبل، أن أكثر إقامة فرنسيس بيكون في فرنسا، إذ كان ملحقا بسفارة انجلترا بها، كانت في مدينة بواتييه. وربما كان لذلك فرسة لذكريات المعركة التي ردت فيها أوربة العرب من شمال فرنسا سنة ٧٣٢ للميلاد (١١٤هـ) والأستاذ العقاد يروي أن أمه كانت تتعصب للمسيحية، وقد بينا من قبل مؤلفاتها ومؤلفات زوجها الدينية، كما يروي العقاد أن فرنسيس بيكون كان يدعو إلى قيام حلف أوروبي للقيام بحرب صليبية ضد الأتراك وقد ذكرنا من قبل أنه ألف صلوات وترجم مزامير دينية كما بينا من قبل إقحامه الأتراك للقذف فيهم دون مناسبة.

ويرى الفيلسوف الفرنسي المعاصر روجيه جارودي ما رآه آخرون قبله أن انتصار أوربة على العرب في واقعة بواتييه سنة ٧٣٢م (١١٤هـ) كان هزيمة للحضارة الأوربية في شكل نصر عسكري أبقاها في جهالة القرون الوسطى. فلم تسطع فيها شمس الحضارة التي أضاءتا الأندلس قرونا ثمانية وفي سنة ١٩٨١ أعلن روجيه جارودي إسلامه بعد أن كان فيلسوف الماركسية المعاصرة. وهو بهذا أحدث الدارسين للحضارة الإسلامية وعلومها. وفي كلامه بيان واضح بالفعل وبالقول على تعصب صاحب "المنهج الجديد" و"تقدم العلوم" وعلى جهله بتاريخ العلوم.

قدماء المصريين ما قاله للمشرع الإغريقي صولون (٥٥٨ ق. م): "أنتم أيها الإغريق أطفال ليست لديكم معرفة القدماء كما أنكم لستم قدماء في المعرفة".

* * *

ويسوغ لقائل أن يقول له أصلا من كتاب الله أسلفنا: (إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون) الأنعام – ١١٦ أو أصلا ثانيا أسلفناه من قوله: (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) يونس – ٣٩ والقضاء الذي جرى به القدر عليه مصداق قوله تعالى.

وليس غلوا ما يقوله بعض: إن ما تحقق "للمنهج الجديد" مكن اشتهار، قد صنعته مكانة إنجلترا السياسية، وكشوف رجالها، وإن لم يعتمدوا على "المنهج الجديد".

وقد يصلح بال بعض أن نختم هذا الباب بتأكيد المستشرق البريطاني الفريد جيوم رئيس كلية كلهام بانجلترا في هذا القرن، عن إحساس تاريخي أو إدراك حدسي أو خفي، حين اختتم بحثه في كتاب تراث الإسلام فقال: "ومن العسير، إن لم يكن من المستحيل، أن نميز ثقافة قوم تسربت إلى ثقافات أخرى، وتغلغلت في ميادينها، كما يصعب تمييز الماء العذب إذا انصب في الملح الأجاج.. وسوف نرى عندما تخرج الكتب المودعة في دور الكتب الأوروبية، أن تأثير العرب الخالدة في حضارة العصور الوسطى، كان أجل شأنا وأجل خطرا مما عرفناه حتى الآن".

* * *

والكتاب الحالي بما تضمن من أبواب وحقائق، وبما أورد من ملاحظات وبخاصة ملاحظات المستشرقين الذين جاءوا بعد بيكون، يصحح بعض أخطاء صاحب "المنهج الجديد" كما يظهر بجلاء أنه ليس بجديد، بل هو بعض من كل سبق به القرآن وعمل به العلماء العرب. في كل فنون العلم.

والكتاب الحالي خطاب موجه للحاضر وللمستقبل معا،باقتدار المنهج القرآني على إبلاغ الفكر الإنساني أعلى مبالغه.

ولقد آن للمسلمين الذين يتوثبون للتقدم ويتشوفون إلى العلم أن يدركوا أن عندهم مفاتحه. وأنهم إذ يعملون به يستردون تقدمهم ولا يستوردونه.

obeikandl.com